

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة  
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية  
قسم علم الاجتماع

محاضرات في مقياس

# الدراسات المؤسسية في علم الاجتماع

إعداد: ع.جرار

السنة الجامعية: 2021/2020

## تمهيد

على الرغم من أن الدراسات التي سوف نستعرضها تمثل الكلاسيكيات الحديثة للبحث في علم الاجتماع التطبيقي، فإنها لم تجر كلها بواسطة علماء الاجتماع. إذ قدم علماء الأنثروبولوجيا وعلماء النفس والباحثون الهواة إسهامات هامة. ولا تختلف العلوم الاجتماعية فيما بينها اختلافاً فادحاً من حيث اهتماماتها البحثية. ولا يزال الوصف الأنثروبولوجي للمجتمعات البسيطة يوفر بيانات للتحصيل في علم الاجتماع. كما يتم تبادل البيانات بين علم النفس وعلم الاجتماع بصفة مستمرة، ولا يمكن في الحقيقة وضع حد فاصل بين البحوث السياسية وبعوث علم الاجتماع.

والدراسات المعروضة مرتبة ترتيباً زمنياً بشكل تقريبي حسب تاريخ نشر تقاريرها، غير أن هذا الترتيب الزمني معرض لنوعين من الأخطاء أولهما: انقضاء فترة زمنية طويلة قد تتجاوز عشر سنوات في بعض الأحيان بين جمع البيانات ونشر التقرير، وثانيهما: أن مشروع البحث الرئيسي غالباً ما يوفر بيانات تكفي لتقرير عديدة تتباعد زمانياً بين بعضها بعضاً.

ومن الحتمي أن تكون الملخصات التالية مختصرة بدرجة لا تعطي هذه المشروعات البحثية حقها، ويمكن أن تعد مدخلاً إليها. إذا ينبغي تعلم تاريخ البحوث مثل تاريخ النظرية – من المصادر الأصلية. ومن العيوب الأخرى لهذه الملخصات أنها لا تأخذ في اعتبارها التراث الهام المتعلق بكل مشروع بحثي، لأن هدفنا الحالي يتمثل في أسباب حيوية هذه البحوث وإسهامها الهام للمعرفة في علم الاجتماع، على الرغم من أوجه النقد الموجهة إليها.

---

(١) انظر مقال بول لازارسفيلد عن "تاريخ القياس الكمي في علم الاجتماع" الذي سبقت الإشارة إليه، وكذلك مقال برنارد ليسويه وأوبرشال عن التاريخ المبكر للبحوث الاجتماعية المنشور في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية، مجلد ١٥، والذي سبقت الإشارة إليه أيضاً.

## 1- الفلاح البولندي

### وليام توماس وفلورين زنانيكى

فى عام ١٩٠٨ حصل وليام توماس الأستاذ بجامعة شيكاغو على منحة ضخمة من مؤسسة خاصة لدراسة المشكلات المرتبطة بالهجرة الأوروبية إلى الولايات المتحدة. وبعد ذلك بقليل قرر أن يركز على الفلاحين البولنديين الذين يشكلون نسبة كبيرة من السكان الأجانب فى شيكاغو، ويمثلون مشكلة بارزة. وفى إحدى رحلاته إلى بولندا تعرف توماس على زنانيكى الشاعر والفيلسوف، ونظم إجراءات سفره إلى الولايات المتحدة ليعمل معه فى هذا المشروع البحثى. وقد نشر تقريرهما المشترك بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة<sup>(١)</sup>.

وتتكون البيانات الخام من مجموعة ضخمة من الوثائق: خطابات شخصية، وقصص صحفية، واستمارات التقدم لجمعية الهجرة، وتاريخ الأبرشية Parish Histories، وإحصاءات الروابط البولندية - الأمريكية، وسجلات القضايا من المحاكم والمؤسسات الاجتماعية. ولا نعرف عدد الوثائق المجموعة، غير أن ما يزيد عن ألف منها موجودة فى كتاب **الفلاح البولندي فى أوروبا وأمريكا** بما فيها سيرة ذاتية طويلة ومثيرة لمهاجر اسمه "ولاديك" Wladek. وفى رأى المؤلفين أن سجلات الحياة

---

(١) William Thomas and Florian Znaniecki, **The Polish Peasant in Europe and America**, ٢Vols., New York, Knopf, ١٩٢٧. Republished in Facsimile, New York, Dover, ١٩٥٨, Originally Published, ١٩١٨-١٩٢٠.

الشخصية تعد "أكثر أنماط بيانات علم الاجتماع اكتمالاً"<sup>(١)</sup>. ويتمثل المنهج الرئيسى فى نمط من أنماط تحليل المضمون، وهو البحث فى الوثائق عن شواهد على الاتجاهات والقيم التى يعتنقها الأشخاص الذين تشير إليهم الوثائق.

وتعد الاتجاهات والقيم بمثابة المصطلحات الأساسية فى هذه الدراسة. والقيم الاجتماعية عند توماس وزنانيكى عبارة عن شئ يشبه الظواهر الاجتماعية عند دوركايم. فالقيمة الاجتماعية هى أى شئ - مادية أو غير مادية - يعد مفيداً لأعضاء الجماعة الاجتماعية، وله معنى بالنسبة لهم يتفوقون عليه دون تفكير. وعلى العكس من ذلك يعد الاتجاه عملية وعى فردى تحدد الأفعال الاجتماعية للفرد. والاتجاه هو الجزء الخاص والذاتى المتم للقيمة الاجتماعية. ويرى توماس وزنانيكى - شأنهما فى ذلك شأن زيمل وعلى النقيض من دوركايم - أن الأفعال الاجتماعية ثنائية بطبيعتها بمعنى أنها ناجمة عن القوى الاجتماعية خارج الفرد الفاعل وعن الدوافع الخاصة داخله. ولا يعترف توماس وزنانيكى بأى تفسير فى علم الاجتماع يتجاهل الظواهر الاجتماعية أو الدوافع الفردية، حيث يقولان: "إن سبب القيمة أو الاتجاه لا يمكن أن يكون الاتجاه أو القيمة وحده، ولكنه دائماً مزيج من الاتجاه والقيمة"<sup>(٢)</sup>.

ويتحقق المزج بين الاتجاهات الفردية والقيم الاجتماعية لدى كل فرد بواسطة عدد ضخم من الرغبات التى يمكن إشباعها فى المحيط الاجتماعى فقط. ويمكن حصر الأنماط العامة للرغبات فى أربعة:

- ١- الرغبة فى اكتساب خبرات جديدة.
  - ٢- الرغبة فى كسب الاعتراف، وهذه تشمل الاستجابة الجنسية والتقدير الاجتماعى العام.
  - ٣- الرغبة فى السيطرة، وهذه تشمل الملكية والقوة السياسية.
  - ٤- الرغبة فى الحماية، وهذه تشمل تدعيم الزملاء وصحبتهم.
- وقد عرفت هذه الرغبات الأربع المشهورة فى صياغة أخرى قدمها توماس فيما

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٨٢٣.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٤٤.

بعد<sup>(١)</sup>، حيث استبعد الرغبة في السيطرة، وأصبحت الرغبات الأساسية هي: اكتساب خبرات جديدة، وكسب الاعتراف، والاستجابة، والحماية.

وكما يبدو واضحاً من عنوان الكتاب: **الفلاح البولندي في أوروبا وأمريكا**، فإنه يحلل وضع الفلاحين البولنديين في هاتين القارتين. ومع أن التركيز انصب على أوروبا، فإن التغيير الاجتماعي كان محور الاهتمام في هاتين القارتين. وتعد الجماعة الأسرية في القرية البولندية التقليدية هي الفاعل الاجتماعي الأساسي، ويخضع الأفراد لها إلى أبعد حد ممكن. وتعد واجبات أعضاء الأسرة تجاه بعضهم بعضاً مسألة التزام لا مسألة عاطفية. ويتم ترتيب الزواج بين الأسر، ولا تحظى المعاشرة الجنسية بأى قيمة مستقلة. ومن الناحية العملية تعد الأسرة الجماعة الاجتماعية المنظمة الوحيدة التي ينتمى إليها الفلاح. وليست علاقات الأسرة بجيرانها من الأسر علاقة وثيقة، غير أن هناك تضامناً قوياً في كل قرية، لأن جميع الفلاحين يعتقدون نفس الآراء حول أدوارهم وعلاقاتهم، كما يؤمنون بنفس المعتقدات حول الدين والسحر. وينعزل هذا المجتمع بهذه الصورة التقليدية انعزالياً واضحاً عن المؤثرات الخارجية، ولا توجد أرستقراطية مالكة للأرض تتحكم فيه، كما يوجد عدد محدود من المدن المجاورة.

وقد أوضح توماس وزنانيكي كيفية تحطم هذا النمط بفعل التغيرات الاقتصادية والمؤثرات الأخرى الخارجية التي أضعفت تضامن الأسرة والقرية مما ساعد الأفراد على تكوين اتجاهات جديدة تتعارض مع القيم الأسرية، كما أدت إلى ظهور التباين في الآراء والمعتقدات والتوجهات الاقتصادية في القرية. ويعرفان **التفكك الاجتماعي** بأنه تقلص تأثير المعايير الجماعية على أعضاء الجماعة، ويوضحان أن هذا التفكك أصبح يميز كل جانب من جوانب المجتمع القروي في بولندا بعد عام ١٩٠٠، مما أدى إلى عملية **إعادة التنظيم** Reorganization. ففي الأسرة حلت القيم والاتجاهات المرتبطة

---

(١) انظر كتاب ويليام توماس:

**The Unadjusted Girl: With Cases and Standpoint for Behavior Analysis**, Boston, Little, Brown, ١٩٦٤.

وقد صدرت الطبعة الأصلية لهذا الكتاب عام ١٩٢٣.

بالمتعة Hedonistic محل التضامن الأسرى. وفى القرية حل السعى نحو النجاح والتفوق الاقتصادى محل الروح الجمعية المحافظة القديمة. كما شهد المجتمع الأكبر فى بولندا نمو طبقة وسطى جديدة، وتعاضم الروح القومية، وتحوير المعتقدات الدينية، وظهور الحركات الثورية، وتعاضم انتشار الأفكار الجديدة من خلال التعليم والصحافة. وقد ظهرت صورة أكثر تطرفاً للتفكك عندما هاجر الفلاحون إلى الولايات المتحدة تاركين وراءهم قراهم البولندية، كما استقلوا عن أسرهم أيضاً. ويوضح توماس وزنانيكى أن المهاجرين لم يدخلوا المجتمع الأمريكى مباشرة. فقد كان مجتمعهم الأول مكوناً من المهاجرين الآخرين، وكان العالم الذى دخلوه عالم المهاجرين البولنديين – الأمريكيين وليس عالم الأمريكيين الوطنيين. وهنا نجد مرة ثانية أن التفكك تبعه إعادة تنظيم وظهور اتجاهات وقيم جديدة. فقد ظهرت جمعيات المهاجرين، والأبرشيات البولندية، والجمعيات الخيرية، والنظام التعليمى التابع للكنيسة، والروابط البولندية – الأمريكية لتحل جزئياً محل الدعائم الجماعية التى افتقدها المهاجرون. بيد أن هذه الجماعات الثانوية الجديدة لم تستطع أن تعوض المهاجر كلية عن الجماعات الأولية القديمة. ويشيع بين الفلاحين البولنديين فى الولايات المتحدة **التفكك الفردى**، ويعرفه توماس وزنانيكى بأنه انتقاد الفرد المقدر على تنظيم حياته من أجل تحقيق أهدافه الخاصة. وليس التفكك الفردى هو نفسه التفكك الاجتماعى على الرغم من الترابط بينهما. إذ يصبح بعض الأفراد مفكرين عندما يسود التفكك الاجتماعى، فى حين يتمكن بعض الأفراد الآخرين من ابتداع أنماط جديدة وناجحة للفعل.

وتتمثل الصور المميزة للتفكك الفردى بين الفلاحين البولنديين فى الولايات المتحدة فى: الإعالة الاقتصادية، وتقوض العلاقات الزوجية، والقتل، وانحراف الأحداث. ويمكن الاستشهاد على الطريقة التى فسر بها توماس وزنانيكى المشكلات السلوكية بالكشف عن الاتجاهات والقيم الكامنة وراءها من خلال الاقتباس التالى الذى يناقشان فيه نتائج الجهود التى تقوم بها المحاكم والمؤسسات الاجتماعية للحيلولة دون

انهيار أسر المهاجرين:

"بعد دراسة دقيقة لمئات عديدة من القضايا لم نجد مثلاً واحداً يدل على أن التدخل الرسمي أدى إلى تقوية الروابط الزوجية. وتفسير ذلك أمر ميسور. فالضبط الاجتماعي الذي تتعرض له الجماعة الزوجية في البلد القديم (بولندا) على يد الأسر والمجتمع المحلي يؤثر في هذه الجماعة كوحدة ويضع مصالحها في اعتباره. وليس دور الوسط الاجتماعي التوفيق بين الزوج والزوجة والفصل في نزاعاتهما الشخصية مثل الدعاوى بين الأفراد المنفصلين، وإنما دوره تدعيم وحدتهما عندما تهددها تصرفات أحدهما. ويشعر الفرد سيئ السلوك بأنه ارتكب إثماً ضد قدسية الزواج، ولا يشعر بأنه مخطئ عند نزاعه مع فرد آخر. ولذلك يساعد الضبط بواسطة الوسط الاجتماعي القديم على زيادة الأهمية المؤسسية للروابط الزوجية. وعلى العكس من ذلك يعنى تدخل المؤسسة الأمريكية نوعاً من التحكيم في النزاع بين الزوج والزوجة اللذين يتم معاملتهما بصفة رسمية وغير رسمية على أنهما طرفين متنازعين أو كطرفين بينهما دعوى ينبغي تسويتها. ولذلك فإن وعى المهاجر يجعله يعالج أموره لا على أساس التضامن، بل على أساس القتال حيث يرغب كل طرف في أن يحصل من خصمه على أقصى ما يستطيع بأية وسيلة ممكنة"<sup>(1)</sup>.

ويعد البولنديون – الأمريكيون اليوم في الغالب مواطنين ينتمون إلى الجيل الثالث أو الرابع الذي لا يعاني مشكلات تخصه وحده، غير أن التحليل السابق لا يزال ينطبق على بعض المهاجرين الجدد والمهاجرين الذين يقيمون في قاع المدينة.

\* \* \*

## 2- إيكلوجية شيكاغو

### مدرسة شيكاغو

دخل روبرت بارك – الذي كان وراء هذه المجموعة الضخمة من الدراسات

---

(1) انظر توماس وزنانيكي، الفلاح البولندي، مرجع سابق، ص ص 1747-1748.

وأشرف على عديد منها – جامعة شيكاغو في سن الخمسين بعد أن عمل فترة طويلة مراسلاً صحفياً، وخبيراً في العلاقات الإثنية (بين السلالات)، ورحالة حول العالم. وكان زيمل هو معلمه الوحيد في علم الاجتماع، ولذلك كان مثله مفتوناً بالحياة الحضرية في تنوعها وتعقدها وأمراضها. وقد ألمح بارك ذات مرة أن قدمه وطأت أرض المدن في مختلف أرجاء العالم أكثر من أى شخص آخر في هذا العالم<sup>(١)</sup>. وفي عام ١٩٦١ كتب مقالاً مشهوراً للمجلة الأمريكية لعلم الاجتماع بعنوان: "المدينة: مقترحات لبحث السلوك الإنساني في البيئة الحضرية"<sup>(٢)</sup>، نادى فيه بدراسة الحياة والثقافة الحضرية باستخدام عدة مناهج: الملاحظة المباشرة، والتحليل الإحصائي، ودراسة الحالة، ووصف الأنماط المهنية، ودراسة العمليات السياسية، وتحليل ما يطلق عليه الآن الثقافات الفرعية للمنحرفين.

وفي السنوات التالية بدأ تنفيذ هذا المشروع البحثي بحماس منقطع النظير في سلسلة طويلة من الدراسات عن شيكاغو أجريت في القسم الذي أشرف عليه بارك، ونشرت بواسطة جامعة شيكاغو. وفيما يلي قائمة ببعض هذه الدراسات:

١٩٢٣	الباعة الجائلون	نيلز أندرسون
١٩٢٧	التفكك الأسرى	ارنست مورر
١٩٢٧	العصابة	فردريك تراشر
١٩٢٨	الجيتو	لويس ويرث
١٩٢٨	الانتحار	روث كافان
١٩٢٩	الساحل الذهبى والأحياء المتخلفة	هارفى زورباو
١٩٢٩	مناطق الجناح	كليفورد شو

(١) Robert E. Park, **Human Communities: The City and Human Ecology**, New York, Free Press, ١٩٥٢, P. ٥.

(٢) Robert E. Park, "The City: Suggestions for the Investigation of Human Behavior in the City Environment", **American Journal of Sociology** ٢٠, No.٥, March ١٩١٥, PP. ٥٧٧-٦١٢.



١٩٣٢	ملاهى الرقص المأجور	بول كريسى
١٩٣٢	الأسرة الزنجية فى شيكاغو	فرانكلين فريزر
١٩٣٣	السلوك الانحرافى فى شيكاغو	والتر ريكليس
١٩٣٣	الاضطرابات العقلية فى المناطق الحضرية	روبرت فارس، وارين وانهام

وهناك مجموعة أخرى من الدراسات التى صدرت فى نفس السلسلة وتناولت دراسة مدن أخرى غير مدينة شيكاغو<sup>(١)</sup>، أو طبقت النتائج المستخلصة من دراسات شيكاغو على المناطق الحضرية بصفة عامة<sup>(٢)</sup>.

وقد عرف الباحثون فى مدرسة شيكاغو بعلماء الإيكولوجيا الحضرية، نظراً لأنهم يرون أن العلاقات بين مختلف السكان فى المدينة تتشابه مع العلاقات بين أنواع الأشجار والنباتات فى أرض جرداء. وباستعارة مصطلحات علم النبات يتحدث هؤلاء العلماء عن **التتابع** Succession عندما يحل سكان محل آخرين فى سكنى حى معين، و**التكافل** Symbiosis عندما يسكن سكان غير مترابطين فى نفس المنطقة، أو **السيطرة** Dominance عندما تتأثر المناطق المتطرفة بالأوضاع فى قلب المدينة. كما استخدم هؤلاء العلماء مجموعة من المصطلحات المشتقة من دراسة التفاعل داخل الجماعة. إذ يذهبون إلى أن العلاقات الجماعية يمكن أن تأخذ صور **التنافس**، و**الصراع**، و**التلاؤم**، و**التمثيل**. وفى التنافس تناضل الجماعات من أجل أهداف متماثلة. وفى الصراع تسعى الجماعات إلى تحقيق أهدافها بالتخلص من بعضها بعضاً كمعوقات أمام تحقيق هذه

(١) For Example, Roderick Duncan McKenzie, **The Neighborhood: A Study of Local Life in the City of Columbus, Ohio**, Chicago, University of Chicago Press, ١٩٢٣; Pauline V. Young, **The Pilgrims of Russiantown**, Chicago, University of Chicago Press, ١٩٣٢.

(٢) For Example, Norman S. Hayner, **Hotel Life**, Chapel Hill, University of North Carolina Press, ١٩٣٦; E. Franklin Frazier, **The Negro Family in the United States**, Chicago, University of Chicago Press, ١٩٣٩; Clifford H. Shaw and Henry D. McKay, **Juvenile Delinquency and Urban Areas**, Chicago, D. McKay, of Chicago Press, ١٩٤٢.

الأهداف. وفي التلاؤم تصل الجماعات ذات الأهداف المتعارضة إلى توافق مستقر ومتبادل. أما التمثيل فهو الاندماج بين جماعتين بحيث لا تصبح هناك أهداف مستقلة خاصة بكل منهما.

ويستخدم علماء الإيكولوجيا هذه العمليات لتفسير أنماط النمو الحضري، فعلى سبيل المثال يتم تنظيم التنافس على المواقع المتميزة في قلب المدينة من خلال سعر الأرض. كما أن الصراع بين جماعات المهاجرين القدامى والجدد يفسر سرعة التنقل السكاني مثلما تغزو الجماعات الجديدة المنطقة التي يسكنها المهاجرون القدامى، ويمثل التلاؤم نوعان من السلام المتقلقل الذي يسود حيث يتقابل الساحل الذهبي مع المناطق المتخلفة عند الجانب الشمالي من شيكاغو. ويحدث التمثيل عندما ينتقل أسلاف جماعات المهاجرين إلى الضواحي ليكونوا ثقافة تميز الطبقة الوسطى ويقيموا الحواجز التي تبعدهم عن الفقراء في قلب المدينة.

وتعد المناهج المستخدمة في دراسات شيكاغو مناهج عرضية (أي تمليها طبيعة الموضوع المبحوث وملاساته) بالاصطلاح الحديث. ففي كل دراسة يقوم الباحث في البداية بجمع معلومات دقيقة عن موضوعه واستخدام الملاحظة بالمشاركة. وبعد ذلك يضيف إلى هذه المعلومات بيانات إضافية كلما أمكنه ذلك من: السجلات الرسمية، وبيانات التعداد، والتعدادات الخاصة، والوثائق وتواريخ الحياة، والمقابلات، والاستبيانات، والمقالات الصحفية، وتقارير الإخباريين المدربين. وقد أوضحت بعض الدراسات المتعلقة بالسلوك الانحرافي في (الجريمة، والجناح، والانتحار، والدعارة، والاضطرابات العقلية)، والدراسات التي اعتمدت على المقاييس الإحصائية - كما يتجلى في دراسة فارس ووانهام - أن تلك الأمراض حتى التي تبدو فردية ومتفرقة كمرضى الفصام يتركزون بدرجة كبيرة في مناطق إيكولوجية محددة. ويصف جون مادج أعمال مدرسة شيكاغو بأنها:

"تهتم بإصرار وبشكل محدد بالموقع الإقليمي، وتؤمن بإصلاح الإنسانية، وتبغض بغضاً أمريكياً متأصلاً الانحراف والنزعة الراديكالية التي تتعايش تعايشاً

- غريباً مع إيمان هذه المدرسة بثراء النظم الاجتماعية وتنوعها<sup>(١)</sup>.
- ويمكن تلخيص النتائج الرئيسية لدراسات شيكاغو فيما يلي:
- ١- أن مجتمع المدينة الكبيرة لا تسوده ثقافة واحدة متماثلة، ولكنه يضم عدداً من الثقافات الفرعية كل منها يعكس تاريخاً مستقلاً ومجموعة متميزة من المصالح.
  - ٢- أن مجتمع المدينة الكبيرة ليس نسقاً اجتماعياً متماثلاً، ولكنه يضم مجموعة من المجتمعات المحلية الفرعية كل منها له نمطه الخاص من الفرص التي يتيحها والقيود التي يفرضها.
  - ٣- أن بيئة المدينة الكبيرة تساعد على اتساع المسافات الاجتماعية دون انعزال فيزيقي. ويلاحظ أن المسافات الاجتماعية بين الجماعات في المدينة الكبيرة أعظم من تلك الموجودة في المدن الصغيرة بسبب الطابع اللاشخصي الذي يميز حياة المدينة الكبيرة، ولأن الجماعات المنعزلة في المدينة الكبيرة تكون كبيرة الحجم بدرجة تجعلها مكتفية بذاتها.
  - ٤- أن التقسيم الداخلي لمجتمع المدينة الكبيرة لا يحول دون الحراك الفردي. والواقع أن هذا التقسيم يشجع على الحراك، لأن الفرد الذي ينتقل إلى جماعة جديدة أو إلى طبقة جديدة ينعزل تلقائياً عن زملائه السابقين.
  - ٥- أن كثيراً من سكان المدن يصبحون بفعل التأثير المزدوج للتفاضل والحراك أقل ميلاً إلى الألفة الاجتماعية، ويتعلمون أن يعيشوا دون اعتراف أو استجابة من الآخرين.
- وغالباً ما يوجد الأشخاص اللااجتماعيون (أو الراضون لمعايير الجماعة) في أماكن الإقامة التي تضم أعداداً كبيرة، كاليوت التي تعيش فيها كل أسرة في حجرة واحدة، وهي تتركز عادة في مناطق معينة، والفنادق الرخيصة التي يقيم فيها روادها، ومناطق الإيواء، ومناطق البيوت المقطورة، ولكنهم لا يطورون روابط اجتماعية قوية

---

(١) John Madge, *The Origins of Scientific Sociology*, New York, Free Press, ١٩٦٢, P. ١٢٥.

بينهم. وعادة ما تتميز هذه المناطق بارتفاع معدلات الانتحار، والاضطراب العقلي، وسوء التغذية، واعتلال الصحة.

٦- أن المدينة الكبيرة تتميز بارتفاع معدل الجريمة ضد الأشخاص والممتلكات، وبالسلوكيات الأخرى التي تعد في نظر المجتمع الأكبر سلوكيات لا شرعية ولا أخلاقية أو كليهما معاً، مثل تعاطي المسكرات، وإدمان المخدرات، والدعارة، والجنسية المثلية، والمقامرة، والتغيب عن العمل، وتخريب الممتلكات العامة أو الخاصة، والإعالة. وتعد دراسات شيكاغو أولى الدراسات التي كشفت عن أن كثيراً من هذا السلوك ينمو وفقاً لمعايير المجتمعات المحلية الفرعية التي تشجع على السلوك الانحرافي وتكافئه.

٧- تتميز كل صورة خطيرة من صور السلوك الانحرافي الذي يحدث في المدينة الكبيرة بالتركز الشديد. ومع أن العاهرات ومدمني المخدرات موجودون في كافة أرجاء المنطقة الحضرية الكبرى، فإن غالبيتهم موجودون في مناطق محددة، وفي منطقة تعدادية بعينها في بعض الأحيان. وهناك ارتباط إيكولوجي (بمعنى أنها تتركز في نفس الأماكن) بين مختلف صور السلوك الانحرافي من ناحية، والفقر، والإعالة، والبطالة من ناحية أخرى.

٨- أن البناء الإيكولوجي للمدينة الأمريكية الكبيرة في لحظة معينة أقل استقراراً مما يبدو لنا. فهذا البناء ناتج عن التطور السريع الذي لا يتوقف. ونادراً ما تظل أنماط الاستيطان واستخدام الأرض مستقرة لأكثر من جيل واحد. فالطفل الذي يكبر لا يستطيع العودة إلى جيرته القديمه ويتوقع أن يجدها كما هي.

٩- أن عملية النمو والانتساع تمر بما يطلق عليه الاسم العجيب "اللامركزية المركزية" (\*). فالتعدد السكاني والبنائي للمنطقة الحضرية الكبرى يستمر في الاطراد. كما أن نمو الضواحي وامتداد التأثير الحضري إلى الظهير يصحبه تركيز شديد

---

(\* ) أي نمو للضواحي والأطراف واستقلالها مع تزايد ارتباطها بمركز المدينة.

للوظائف فى حى الأعمال المركزى، كما يصحبه تغيرات عديدة فى خصائص الأحياء الوسطى.

إن عديداً من الموضوعات التى تطرقت إليها لأول مرة مدرسة شيكاغو (مثل التفاعل فى الجيرة، والعصابات الجانحة، والأسرة فى المناطق المتخلفة، والتشرد) يتم دراستها الآن بصفة مستمرة وفى كل مكان: من شيكاغو إلى أوزاكا (فى اليابان) إلى إيبادان (فى نيجيريا).

\* \* \*

### 3- ميدلتاون

#### روبرت وهيلين ليند

تلقى روبرت ليند تعليمه لصبح كاهناً فى الكنيسة البروتستانتية. وفى أوائل العشرينيات قام هو وزوجته بإجراء مسح عن الأنشطة والممارسات الدينية فى مجتمع محلى أمريكى نمطى. وكان المكان الذى اختاره هو مدينة مونسى Muncie بولاية انديانا، وهى مدينة صناعية صغيرة يبلغ عدد سكانها حوالى ٤٠ ألف نسمة، وهى تقترب كثيراً من محل ميلاد روبرت ليند. وقد استعير عن اسم هذه المدينة باسم مستعار هو "ميدلتاون" Middletown. وسرعان ما تجاوزت الدراسة هدفها الأسمى واتسعت لتغطى جميع الجوانب الأساسية للحياة الاجتماعية المنظمة تحت ستة عناوين هى: كسب القوت، وتأثيث المنزل، وتنشئة الصغار، واستخدام وقت الفراغ، والمشاركة فى الممارسات الدينية، والمشاركة فى أنشطة المجتمع المحلى. وتنقسم كل فئة من هذه الفئات إلى أقسام أخرى. فعلى سبيل المثال نجد أن مناقشة أنشطة المجتمع المحلى فى ميدلتاون<sup>(١)</sup> شملت وسائل الإدارة الحكومية، والمحافظة على الصحة ورعاية المعوقين، والحصول على المعلومات، والعوامل المفضية إلى تضامن الجماعة وكذا العوامل المؤدية إلى إعاقة هذا التضامن.

وقد قام ليند وزوجته ومعاونهما بفتح مكتب فى مبنى محلى لجمع البيانات لمدة استغرقت ثمانية عشر شهراً. وخلال تلك الفترة شارك ليند وزوجته قدر الإمكان فى

---

(١) Robert S. Lynd and Helen Merrell Lynd, **Middletown: A Study in American Culture**, New York, Harcourt Brace Jovanovich, ١٩٢٩.

جميع جوانب الحياة بالمجتمع المحلى، واعتمد التقرير النهائى للبحث على مزيج من البيانات الرسمية والانطباعات غير الرسمية. وقامت الدراسة على مقارنة دقيقة بين ميدلتاون المعاصرة (١٩٢٤ و ١٩٢٥) وميدلتاون منذ جيل مضى (١٨٩٠).

وبالإضافة إلى المعلومات التى حصل عليها ليند وزوجته باستخدام الملاحظة بالمشاركة، قاما بفحص البيانات الوثائقية، وجمع الإحصاءات، وإجراء المقابلات، والاستعانة بالاستبيانات. ومن بين الوثائق المكتوبة نجد تقارير التعداد، وسجلات المدينة والإقليم، وملفات المحاكم، وسجلات المدارس، وتقارير الولاية وكتبها السنوية، والصحف، ومحاضر الاجتماعات، واليوميات الشخصية، وسجل القصاصات، والأحداث المحلية، ودليل المدينة، والخرائط، وكراسة الغرفة التجارية، وحوليات المدرسة الثانوية. وشمل برنامج المقابلات محادثات عارضة، ومقابلات مخططة مع أبرز الإخباريين، ومسح لعينة من أسر الطبقة العاملة، وعينة أخرى من أسر طبقة رجال الأعمال.

وكان كتاب ميدلتاون أول كتب علم الاجتماع التى أصبحت من الكتب الأكثر مبيعاً، حيث طبع منه ست طبعات فى السنة التى ظهر فيها، وحظى بمناقشات حامية فى أرجاء الولايات المتحدة خاصة فى ميدلتاون. وأصبح مؤلفا هذا الكتاب مشهورين بين عشية وضحاها. وقد كشف الكتاب - فى رأى بعض القراء - عن الضجر بالحياة وعدم جدواها فى الظهير الحضرى (القدر الأكبر من المناطق الحضرية فى المدن الصغيرة والمتوسطة)، وأطلق عليه مينكين H. L. Mencken "دراسة فى النكد" A Study of Moronia. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كشف هذا الكتاب - فى رأى قراء آخرين بما فيهم قادة الرأى فى مونسى - عن قوة أسلوب الحياة الأمريكية وقدرته على تحقيق التلاؤم. وقد حصل ليند بسبب إسهامه فى هذا العمل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا وعين أستاذاً لعلم الاجتماع بها عام ١٩٣١.

وفى هذا الوقت فاجأ الكساد العظيم الولايات المتحدة وجميع مدنها التى تشبه الميدلتاون. وفى عام ١٩٣٥ عاد ليند وزوجته إلى مونسى مع مجموعة كبيرة من

المعاونين لدراسة تأثير الكساد ورصد التغيرات التي أصابت كل نظام من النظم الاجتماعية. وكانت المناهج المستخدمة في هذا البحث الثانى أكثر اختصاراً من مناهج البحث الأول. وقد نشر كتاب **ميدلتاون المتغيرة**<sup>(١)</sup> بعد سنتين فقط. وكان التغير الذى انتاب ليند وزوجته يفوق التغير الذى أصاب مجتمع الدراسة. ففي الفترة الواقعة بين الدراستين تقبلاً وجهة النظر الماركسية للبناء الاجتماعى، وأصبحت يؤمنان الآن بأن العلاقات المتصلة بكسب القوت هى التى تحدد بناء النظم الاجتماعية الخمسة الأخرى بالإضافة إلى القيم والمعتقدات السائدة. لقد اهتزت ثقتهما القديمة فى أسلوب المعيشة فى ميدلتاون وفى قدرته على التلاؤم، وكان ذلك بدرجة أقوى من اهتزاز ثقة السكان فى هذا الأسلوب. ولم يقتصر الأمر على وصف ليند وزوجته للتغير الضخم الذى أصاب ميدلتاون عام ١٩٣٥ كما سوف يتضح من بعد، بل إنهما عدلا من وصفهما لهذا المجتمع عام ١٩٢٥ بشكل أصبحت معه الملامح السلبية أكثر وضوحاً.

ومن النتائج الأساسية للدراسة الأولى الانقسام الحاد للمجتمع المحلى إلى طبقة رجال الأعمال التى تحصل على معظم دخلها من العمل مع الناس، وطبقة العمال التى تحصل على معظم دخلها من العمل مع الأشياء. وتختلف هاتان الطبقتان اختلافاً حاداً بدرجة تفوق ما يدرسه أعضاؤها ويتضح هذا الاختلاف فى فرص الحياة، ونظام المعيشة اليومي (الروتين اليومي)، والعلاقات الأسرية وكذلك المعتقدات الدينية والسياسية إلى حد ما. وتتشابه عادات أفراد الطبقة العاملة فى بعض الجوانب مع عادات أفراد طبقة رجال الأعمال من الجيل الماضى. وتظهر السمات الثقافية الجديدة فى طبقة رجال الأعمال أولاً، ثم تنتقل ببطء إلى طبقة العمال.

وكان تأثر هاتين الطبقتين بالتغير الاجتماعى بدرجة غير متكافئة. كما كان الصغار أكثر استجابة لهذا التغير من والديهم، وكانت النساء أكثر استجابة له من الرجال خاصة فى طبقة رجال الأعمال. وكان هناك نوع من التدرج فيما يتعلق

---

(١) Robert S. Lynd and Helen Merrell Lynd, **Middletown in Transition: A Study in Cultural Conflicts**, New York, Harcourt Brace Jovanovich, ١٩٣٧.

بسرعة التغيير الاجتماعى فى النظم الاجتماعية الستة. إذ كان التغيير أكثر سرعة فى النشاط الاقتصادى، يليه وقت الفراغ، والتعليم، وأنشطة المجتمع المحلى، والأنماط الأسرية، والدين النظامى على هذا الترتيب. وبالنسبة للنسق ككل كان التكيف مع التغيير الاجتماعى السريع هو المشكلة:

"تُظهر الحياة فى ميدلتاون فى كل جانب تقريباً بعض التغييرات أو بعض الضغوط الناتجة عن الفشل فى التغيير. ويقف الفرد بإحدى قدميه على أرض صلبة من العادات النظامية الراسخة، ويجرى بقدمه الأخرى على سلم يتحرك فى اتجاهات عديدة بسرعات مذهلة. وتتوقف المعيشة فى مثل هذه الظروف أولاً وقبل كل شئ على تحقيق قدر من التوازن"<sup>(١)</sup>.

وكان تحقيق هذا التوازن عام ١٩٢٥ أسهل إلى حد ما على الرجال فى طبقة رجال الأعمال مقارنة بالعمال على الرغم من اهتزاز ثقتهم نتيجة الرغبة فى التغيير من جانب زوجاتهم والتمرد من جانب أطفالهم فى طور المراهقة. يضاف إلى ذلك أنهم لا يستطيعون تجاهل نذر الاضطراب فى نظام العمل نفسه. وكانت استجابتهم لهذا الاضطراب "التدعيم المعنوى" Booster Spirit، وهى إيديولوجية بين التضامن المحلى، والنزعة السياسية المحافظة، وإضفاء الطابع المثالى على أنشطة العمل، والإصرار على الامتثال. ولم تقابل الطبقة العاملة هذه الإيديولوجية بتحد واضح عام ١٩٢٥ على الرغم من عدم سعادتها بها.

وفى عام ١٩٣٥ كانت ميدلتاون قد بدأت تصحح وضعها الناتج عن انهيار الصناعة، والبطالة السافرة، والخسارة فى الممتلكات والمدخرات التى حدثت خلال السنوات الخمس الماضية. وتعطل التقدم الاقتصادى للمجتمع المحلى تعطلاً كاملاً. وأصبح حوالى ربع الأسر يعيش على المساعدات العامة، وانخفضت أعداد الزيجات والولادات، وتوقف تشييد المباني الجديدة. وشهد نظام العمل تحولاً بفعل القواعد الفيدرالية، وانتشار الحركة النقابية بين العمال، والصراعات الكامنة فى القيم داخل

---

(١) ليند وليند، الميدلتاون، ص ٤٩٨.



مجتمع الميديلان مثل الصراع بين مُثل الفردية ومُثل المسؤولية الجمعية، ذلك الصراع الذى شق طريقه وطفا على السطح. بيد أن التأثير العام للكساد تجلى فى إبطاء سرعة التغير الاجتماعى. إذ تتشابه مناسيب الخريطة الثقافية لميديلان عام ١٩٣٥ مع عام ١٩٢٥. واكن برنامج المساعدات العامة هو الملمح الوحيد الجديد فى التشكيل النظامى للمجتمع. ويبدو أن أبرز الاختلافات بين الفترتين تمثلت فى عقول السكان، فى وعيهم بنمو التعارض بين الواقع والرموز التى يستخدمونها فى تفسيره.

وقد اتخذ تحرر ليند وزوجته من الأوهام مجرى طبيعياً موازياً. فقد اكتشفا ملامح بغیضة للحياة فى ميديلان تغاضياً عنها أو صوراًها بدرجة أقل من الواقع عام ١٩٢٥. ففى مناقشة الدعارة أوضحت الدراسة الأولى انحسارها، ووجود بيتين أو ثلاثة لممارسة الدعارة فى الخفاء. وبعد عشر سنوات اكتشف ليند وزوجته أن ميديلان كانت فى عام ١٩٢٥ تمثل مركزاً للدعارة لإقليم كبير وأنها فشلا فى ملاحظة وجود منطقة حى البغاء بجانب حى الأعمال. وعلى نحو مشابه أصبح ليند وزوجته على دراية بأن نسبة كبيرة من السكان كانوا يعيشون فى مساكن متهدمة لا توجد بها مياه نقية أو تدفئة كافية، وأن إدمان المسكرات كان منتشراً عام ١٩٢٥، وأن التعصب ضد الزنوج كان يمثل مرضاً مستوطناً، وأن الصحافة المحلية كانت تتعرض للمناورات ولمؤثرات غير قويمة، وأن النهر كان ملوثاً بدرجة خطيرة.

والأهم من ذلك أن ليند وزوجته أعادا النظر فى وجهة نظرهما السابقة حول البناء الطبقي لتأخذ فى الاعتبار دور الأسر ذات النفوذ التى كانت تمتلك الصناعة المحلية الرئيسية، والتى كانت تمارس نوعاً من السيطرة على المجتمع المحلى برمته من خلال علاقاتها الاستراتيجية مع البنوك الرئيسية، والمكاتب القانونية، ومجلس التعليم، والجمعيات الخيرية، والكنائس، والصحافة، والأحزاب السياسية، ويبدو أن الكساد عزز هذه السيطرة. وأدرك ليند وزوجته وجود طبقة عليا ناشئة تتكون من رجال الصناعة الأثرياء، وأصحاب البنوك والمديرين المحليين للشركات الوطنية، وقلّة ثرية تابعة لهذه الجماعات. ويقسمان الآن طبقة رجال الأعمال إلى طبقة وسطى – عليا مؤلفة من أصحاب المصانع، والتجار، وأصحاب المهن الفنية المتخصصة، والمديرين التنفيذيين، وطبقة وسطى – دنيا تتألف من صغار باعة التجزئة، والكتبة، والعاملين بالخدمات،

وأصحاب المهن الفنية. كما يقسمان الطبقة العاملة إلى "الارستقراطية العمالية" المكونة من رؤساء العمال والحرفيين، والعمال المهرة وقطاع كبير من العمال العاملين أمام الآلات والعمال شبه المهرة، والطبقة الدنيا المكونة من العمال غير المهرة والعمال الذين يعملون بصفة عرضية أو مؤقتة. وكثير من هؤلاء من البيض الفقراء القادمين من المناطق الجبلية المجاورة. ولم يخلص ليند وزوجته من هذه التقسيمات الحادة إلى أن الحرب الطبقيّة على وشك الحدوث، بل يبدو من المحتمل أن تسير ميدلتاون في الطريق الوسط المعتاد، وتتكيف بعناد مع التغيرات اللازمة وتشكل مستقبلها من خلال عمليات التوفيق والحلول الوسطى. وفي الجملة الأخيرة من كتاب "ميدلتاون المتغيرة" يستشهد ليند وزوجته بعبارة كتبها تاونى Tawney فى وصفه للوضع بعد الثورة الفرنسية: "... إن الناس يسرون إلى الوراء على مضض فى اتجاههم نحو المستقبل، خشية أن يصيبهم مكروه"<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

#### 4- تجارب هوثورن

مايو، روثلسبرجر، ديسكون

أجريت تجارب هوثورن التى تعرف أيضاً بدراسات شركة ويسترن إلكترونيك فى مصنع شركة ويسترن إلكترونيك فى دائرة هاوثورن بمدينة شيكاغو فى الفترة من ١٩٢٧ إلى ١٩٣٢، تحت إشراف مشترك من بعض العاملين بالشركة وفريق من الباحثين بجامعة هارفارد بقيادة إلتون مايو. وقد نشر تقرير البحث النهائى تحت عنوان **الإدارة والعمال**<sup>(١)</sup> عام ١٩٣٩ من تأليف روثلسبرجر ووليام ديسكون، غير أن موجزاً بالنتائج ظهر قبل ذلك بعدة سنوات فى كتاب مايو **المشكلات الإنسانية للحضارة**

---

(١) F. J. Roethlisberger and William, J. Dickson (with Harlod A. Wright), **Management and the Worker**, Cambridge, Mass., Harvard University Press, ١٩٣٩.

الصناعية<sup>(١)</sup>، كما نشر من قبل أيضاً تقرير إحصائي تفصيلي من تأليف وايتهد<sup>(٢)</sup>. ومع أن مايو قدم عرضاً مختصراً مبسطاً للنتائج، فقد صاغها في منظور أوسع يوضح صلتها بمفهوم الأنومي عند دوركايم، وتأكيد باريتو على أهمية النظريات غير المنطقة في شؤون الحياة اليومية الإنسانية، وإيكولوجية شيكاغو كما تصفها مدرسة شيكاغو، والنتائج الأولية لدراسة يانكي سيتي، والنظريات النفسية عند جانيت وفرويد وبياجيه، وسلوك السكان الأستراليين الأصليين وسكان جزر التروبريان. وقد جمع مايو أفكاراً رئيسية من هذه المصادر العديدة ليضمها إلى نتائج تجارب هوثورن بما يدعم ادعائه الرئيسي، وهو أن الصناعة تحتاج إلى مستوى رفيع للغاية في القدرات والمعارف الإدارية من أجل المحافظة على الاتصال والتعاون الوثيق المطلوبين لكفاية الإنتاج والسعادة الشخصية للعمال.

وشركة ويسترن إليكتريك شركة تابعة للشركة الأمريكية للتليفون والتلغراف، وهي تصنع معظم المعدات التي تحتاجها الشركة الأم. ومصانع هوثورن شركة ضخمة تعمل في إنتاج المعدات التليفونية بكميات ضخمة. وأثناء القيام بالدراسة كانت نسبة كبيرة من قوة العمل تتكون من الأجانب أو أبناء المهاجرين. وكانت نقابة العمال وقتها ضعيفة غير مؤثرة، ومع ذلك لم تكن تبذل أي محاولات جادة لدعم كيان النقابة

---

(١) Elton Mayo, **The Human Problems of an Industrial Civilization**, ٢d ed., Boston Division of Research, Graduate School of Business Administration, Harvard University, ١٩٤٦.

وقد صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى عام ١٩٣٣ عن دار ماكميلان بنيويورك. وكان هذا المشروع بمثابة ثمرة بحث سابق عن التعب في العمل الصناعي الذي كان يجري بمعمل دراسة التعب بجامعة هارفارد. وكان مدير المعمل آنذاك لورانس هندرسون، المتخصص في الكيمياء الحيوية، كما كان يقدم في بعض الأحيان محاضرات في علم الاجتماع، وهو يشغل مكانة متميزة في تاريخ البحث الاجتماعي في الولايات المتحدة. وقد تولى بالتشجيع والتوجيه البحوث الأولى التي قام بها كل من بارسونز، ووايت، وبيرنارد، ووارنر، وأرنسبرج، وهومانز وغيرهم. ثم انتقل إلتون مايو إلى هارفارد وبدأ تعاونه مع هندرسون في عام ١٩٢٦. وفي العام التالي مباشرة بدأ مشروع بحث ويسترن إليكتريك (١٩٢٧).

(٢) Thomas North Whitehead, **The Industrial Worker: A Statistical Study of Human Relations in a Group of Manual Workers**, ٢d Vols., Cambridge, Mass., Harvard University Press, ١٩٣٨.

وتقويتها.

وتتكون تجارب هوثورن من خمس دراسات مستقلة لكل منها مناهجها ونتائجها المختلفة، وكلها تسلم إلى نتيجة مؤداها أن إنتاج العمال يتحدد بدرجة كبيرة بطبيعة العلاقات الاجتماعية مع أقرانهم من العمال ومع المشرفين. وهذه الدراسات الخمس هي:

١- تجارب الإضاءة.

٢- حجرة اختبار خط التجميع المناوب (أى القائم بالعمل وقت البحث).

٣- تقسيم المجموعات إلى فرق.

٤- برنامج المقابلات.

٥- حجرة ملاحظة شبكة الأسلاك.

وسوف نناقش ثلاثاً فقط من هذه الدراسات فيما يلي:

**تجارب الإضاءة:** أجريت هذه التجارب من قبل على يد المسؤولين عن شركة ويسترن إليكتريك قبل وصول فريق جامعة هارفارد. وصممت هذه التجارب بغرض الكشف عن علاقة الإضاءة بالكفاية الصناعية. وتم فى التجربة الأولى زيادة مستوى الإضاءة بدرجات بطيئة فى ثلاثة أقسام تؤدى مهاماً مختلفة. وتبين فى قسمين من هذه الأقسام أن الكفاية تزيد مع تحسن الإضاءة، فى حين لم يتضح أى تأثير للإضاءة فى القسم الثالث. وفى التجربة الثانية تم اختيار مجموعة واحدة لتعمل فى إضاءة متغيرة، وتم مضاهاة هذه المجموعة بمجموعة ضابطة تعرضت لإضاءة ثابتة قدر الإمكان. وكانت النتائج مباعثة، حيث زادت الإنتاجية فى المجموعتين التجريبية والضابطة بنفس القدر تقريباً. وفى التجربة الثالثة تم تعريض المجموعتين: التجريبية والضابطة لإضاءة صناعية لاستبعاد الاختلاف فى كمية ضوء النهار الواصل إليها. وتم تخفيض مستوى الإضاءة بالتدرج فى حجرة المجموعة التجريبية.

وتبين للمرة الثانية أن كفاية المجموعتين: التجريبية والضابطة تزيد بنفس المعدل تقريباً. ولم يبدأ الإنتاج فى الانخفاض إلا بعد أن قام الباحثون بتخفيض الإضاءة فى

المجموعة التجريبية إلى مستوى ضوء القمر تقريباً. بحيث لم يعد العمال قادرين على رؤية المواد التي يعملون فيها إلا بصعوبة.

ويتضح من هذه التجارب أن الإضاءة تؤثر تأثيراً ضئيلاً فى الإنتاج، وأن الزيادة الملحوظة فى هذا الإنتاج أثناء التجارب لا بد أنها تعود إلى عامل آخر لم يُعمل حسابه. وتحدد هذا العامل الخفى بتأثير عملية البحث نفسها أو ما أطلق عليه "تأثير هورن". ووفقاً لهذا التفسير (الذى لم يقبله الباحثون الأصليون)، فإن العمال تعرضوا لبرنامج تجريبى، وأن الاهتمام الشخصى الذى نالوه مع البرنامج كان له تأثيره فى تغيير حالة اللامبالاة والمسافة الاجتماعية فى علاقاتهم الطبيعية مع الإدارة وتوصيلهم إلى حالة دفعتهم إلى العمل الجاد، وبالتالي زاد الإنتاج بغض النظر عن مقدار التحسن فى ظروف العمل المادية التى أحدثتها التجارب. وقد لوحظ ظهور تأثير هورن فى مؤسسات أخرى كالمدارس، والمكاتب، والمستشفيات، والسجون وأماكن أخرى فضلاً عن المصانع طبعاً.

**برنامج المقابلات:** انبثق برنامج المقابلات فى شركة ويسترن إلكترونيك عن برنامج تدريبي للمشرفين كشف عن نقص المعلومات حول الروح المعنوية، كما انبثق أيضاً عن اكتشاف وجود علاقة بين الإشراف والروح المعنوية فى حجرة الاختبار. وكان برنامج المقابلات يتألف من مرحلتين: الأولى: دراسة استطلاعية أجريت فى أحد فروع الشركة من سبتمبر ١٩٢٨ إلى فبراير ١٩٢٩، والثانية: برنامج متصل شمل حوالى ٢٠ ألف مقابلة مع العاملين فى الشركة فى عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٠. وقد توقف البرنامج عام ١٩٣١ نظراً لحدوث انخفاض مماثل فى النشاط الإنتاجى، مما أدى إلى تعثر التجارب الأخرى. بيد أن البرنامج عاد مرة ثانية عام ١٩٣٦ ليصبح من الملامح الدائمة للإدارة العمالية فى مصانع هورثون تحت مسمى "الإرشاد العمالى"<sup>(١)</sup>.

---

(١) نشر وصف مفصل لبرنامج المقابلات فى مصانع هورثون بعدها بحوالى عقدين من الزمان، وذلك فى المقال التالى:

وفي بداية البرنامج أعد القائمون بالمقابلة قائمة بالموضوعات التي اعتقدوا أنها ترتبط بالروح المعنوية مثل التدفئة، والتهوية، والتخزين، وحوادث العمل، والمزايا الإضافية، وفرص الترقية. وقد واجه القائمون بالمقابلة صعوبات في إلزام المبحوثين بهذه الموضوعات، وجاءت النتائج أكثر إثارة عندما سارت المقابلة على طبيعتها دون الالتزام بالموضوعات المحددة. وبعد عدة مناقشات اتبع الباحثون أسلوباً جديداً للمقابلة أطلقوا عليه الأسلوب غير المباشر، أو ما يطلق عليه الآن **المقابلة غير الموجهة**. فقد ترك للمبحوث أن يختار الموضوعات، ويقوم القائم بالمقابلة بمتابعة تفكير المبحوث دون أية محاولة لتغيير الموضوع أو التدخل في المحادثة. وترتب على تغيير أسلوب المقابلة إطالة وقت المقابلة من ٣٠ دقيقة إلى ٩٠ دقيقة، كما زاد متوسط عدد صفحات تقرير المقابلة من حوالي أربع صفحات إلى حوالي عشر صفحات. وقد تبين أن إتاحة الفرصة للحديث مع باحث غير مدقق خلال ساعات العمل وإتاحة الفرصة للكشف عن المشكلات الشخصية في سرية تامة مع غريب متعاطف له تأثير إيجابي مستقل على الروح المعنوية للعمال.

وكانت هذه النتيجة على درجة كبيرة من الأهمية. وكان هذا هو هدف برنامج المقابلات عندما طبق مرة ثانية في مصانع هورثون. ومع ذلك كان للبرنامج الأصلي أهداف أخرى. ومن خلال المقابلات التي أجريت أثناء عام ١٩٢٩ استخرج قسم التحليل بالمشروع حوالي ٨٠ ألف تعليق، وتم تصنيفها حسب درجة إلحاح الشكاوى وحسب طابعها الإيجابي أو السلبي. وكانت تلك أول عملية تحليل مضمون تمت على هذا النطاق الضخم. وقد خضعت التعليقات التي تضم شكاوى وفقاً لنظام يذكرنا بباريتو إلى الفئة (أ) شكاوى موضوعية صحيحة، والفئة (ب) شكاوى شخصية، والفئة (ج) شكاوى غير منطقية. وقد أدى هذا التصنيف بالباحثين إلى التمييز بين المضمون الظاهر والمضمون الكامن للشكاوى. وخلصوا إلى أن **المضمون الكامن** (الاتجاهات

---

Jeanne L. Wilensky and Harold L. Wilensky, "Personnel Counseling: The Hawthorne Case", *American Journal of Sociology* ٥٧, No. ٣, November, ١٩٥١, pp. ٢٦٥-٢٨٠.

الكامنة وراء صاحب الشكوى) يعادل فى أهميته المضمون الظاهر (الشكوى التى يعبر عنها صاحبها). ويلاحظ أن العامل الذى يشكو مرة من حجرة الطعام ثم يشكو من مشرفه فى مرة ثانية، إنما يعبر عن نفس الاتجاه الأساسى فى كلا المرتين. وتتلخص النتيجة الأساسية لهذا التحليل الشامل فى أن مناخ العمل الذى يعمل فيه العمال الصناعيون – وربما غيرهم من العمال – ذا أهمية اجتماعية. وحتى يتسنى فهم شكاوى العمال وكذا مصادر رضاهم ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار أربع ظواهر مختلفة: التنظيم الاجتماعى الذى يتم العمل فى إطاره، والأحداث والأشياء والأشخاص الموجودون فى بيئة العامل، ووضع العامل داخل التنظيم، والأنساق الاجتماعية الخارجية التى تحيط بعمله.

**حجرة ملاحظة شبكة الأسلاك:** اشتملت التجربة الأخيرة من تجارب هوثورن على دراسة تفصيلية لموقف معملى من وجهة نظر علم الاجتماع. وكان الهدف من تصميم هذه التجربة الكشف عن آثار التفاعل الاجتماعى على سلوك العمال. ومع تقدم الدراسة بدأت فى التركيز على عملية تقييد الإنتاج التى تمارسها جماعة الأقران المنظمة تنظيمياً غير رسمى.

لقد أخذت مجموعة من العمال الذكور من القسم الذى يعملون فيه، ووضعوا تحت الملاحظة فى حجرة مستقلة ليستمرروا فى أداء نفس العمل الذى كانوا يقومون به. وكان عملهم هو توصيل أسلاك خطوط لوحة مفاتيح التليفونات. وتكونت هذه المجموعة من ١٤ رجلاً على النحو التالى: ٩ عمال أسلاك، وثلاثة لحامين، واثنان من المفتشين، بالإضافة إلى ملاحظ تم ضبط سلوكه ضبطاً دقيقاً حتى لا ينزلق إلى دور شبه إشرافى. وقد استمرت هذه التجربة الأخيرة من نوفمبر ١٩٣١ إلى مايو ١٩٣٢ حيث انتهت بانتهاء المشروع.

ولقد ظلت أجور العمال وساعات عملهم على حالها. إذ أن نظام حوافز الأجر يضع معياراً قدره ٧٢٠٠ توصيلة، غير أن العامل يقف عن ٦٦٠٠ توصيلة فى اليوم. ويذكر معظم العمال أن إنتاجهم اليومى يقترب من هذا الرقم مع أن ذلك يتطلب جهداً متواصلاً وانشغالاً بهذه الأرقام. وباستثناء فرد أو فردين لم يندمجوا كلية مع الجماعة، استطاع بقية العمال أن يصلوا إلى هذا الإنتاج تقريباً. وهذا يعنى أن بعض العمال

ينتجون أقل مما يستطيعون إنتاجه بالفعل، وبعضهم ينتج أكثر من ذلك، وتنتج المجموعة ككل أقل مما تقدر عليه.

ويلاحظ أن التنظيم الاجتماعي الداخلى لحجرة شبكة الأسلاك كان أكثر إحكاماً أثناء فترة التجربة القصيرة من التنظيم الاجتماعي الملحوظ لمجموعات أصغر من الفتيات فى التجارب السابقة. ولم يقتصر الأمر على أن المجموعة استطاعت تطوير معاييرها الخاصة بها، وتتحدد على استقرار الإنتاج عند المستوى المرغوب فيه، وتحافظ على التضامن ضد المشرفين والأغراب، بل إن هذه المجموعة انقسمت إلى زمرتين تتفوق إحداهما على الأخرى، ولكل منهما نمط من التفاعل الداخلى الخاص بها.

وقد قام جورج هومانز<sup>(1)</sup> بتحليل بارع لهذا المجتمع الصغير بعد ذلك بعدة سنوات لتوضيح كيفية حفاظ الأنساق الاجتماعية بصفة عامة على نفسها ضد الضغوط الخارجية، وتحقيق توازن داخلى بين العواطف والنشاط بما يكفل الامتثال لمعايير الجماعة، وتناسب الثواب الاجتماعي مع الرتبة الاجتماعية، وإنجاز الأهداف المشتركة.

\* \* \*

## 5- سلسلة دراسات يانكى سيتى

### لويد وارنر

كانت دراسة يانكى سيتى نتاجاً مباشراً لتجارب هوثورن، التى كان لويد وارنر قد شارك فيها لفترة قصيرة. ووارنر عالم "أنثروبولوجيا" حول اهتمامه من المجتمعات البدائية إلى المجتمعات الحديثة. كان قد خطط الباحثون فى ويسترن إليكتريك لدراسة علاقة مصانع هوثورن بالمجتمع المحلى المحيط بها. ولقد أبان البحث الدقيق وجود بعض المعوقات أمام دراسة مدينة كبيرة كمدينة شيكاغو، وبدأ البحث عن مجتمع محلى صناعى صغير يمكن فيه دراسة مشكلات عمال المصنع فى

(1) جورج هومانز، الجماعة الإنسانية، مرجع سابق، الفصول من الثالث حتى السادس.



إطار السياق الاجتماعي الكلي الذي يعيشون فيه. وقد رغب وارنر أن يدرس مجتمعاً محلياً أقل تفككاً من الأحياء الصناعية بمدينة شيكاغو، أى مجتمع تتميز فيه الأنماط الاجتماعية بالاستقرار النسبي ومقاومة التغيير. وهذا ما جعل اختياره ينحصر فى نيوانجلند. وقد وقع الاختيار فى النهاية على نيو برى بورت New Bury Port فى ماساشوسيتس، وهى مدينة ساحلية صغيرة لها تاريخ طويل ومتواصل. وكانت تضم حوالى ١٧ ألف نسمة وقت إجراء الدراسة.

وقد بدأ العمل الميدانى عام ١٩٣١ واكتمل عام ١٩٣٥. وخرجت نتائج المشروع فى خمسة مجلدات ضخمة<sup>(١)</sup> ظهرت فى الفترة بين ١٩٤١ و ١٩٥٩ وفقاً لخطة البحث الأصلية. وتغطى هذه المجلدات النمط العام للحياة الاجتماعية فى يانكى سيتى، وتحليلاً دقيقاً لنسق المكانة، وأوضاع ثمانى جماعات عرقية فى المجتمع المحلى (الأيرلنديون، والكنديون الفرنسيون، واليهود، والإيطاليون، والأرمن، واليونانيون، والبولنديون، والروس)، والتطور المفاجئ الهام لصناعة الأحذية المحلية، والرموز السياسية والتاريخية والدينية فى يانكى سيتى. وقد ساعد وارنر فى إعداد هذه المجلدات مجموعة من المشاركين والمساعدين الأكفاء، وواصل كثير منهم إجراء بحوث هامة خاصة بهم فيما بعد.

ويتشابه مشروع يانكى سيتى مع المشروع الأول فى ميدلتاون من نواح عديدة. إذ نجد للمرة الثانية مجموعة متحمسة من شباب الباحثين تنتقل إلى المجتمع المحلى،

---

(١) W. Lloyd Warner and Paul S. Lunt, **The Social Life of a Modern Community**, New Haven, Yale University Press, ١٩٤١; W. Lloyd Warner and Paul S. Lunt, **The Status System of a Modern Community**, New Haven, Yale University Press, ١٩٤٢; W. Lloyd Warner and Leo Srole, **The Social Systems of American Ethnic Groups**, New Haven, Yale University Press, ١٩٤٥; W. Lloyd Warner and J.O. Low, **The Social Systems of the Modern Factory: The Strike: A Social Analysis**, New Haven, Yale University Press, ١٩٤٧; W. Lloyd Warner, **The Living and the Dead: A Study of the Symbolic Life of Americans**, New Haven, Yale University Press, ١٩٥٩.

وتحيط سكانه علماً بأهدافهم العامة، وتسعى إلى جمع معلومات غزيرة باستخدام طرق عديدة: الملاحظة بالمشاركة، ورسم الخرائط، والعد الإحصائي، والمقابلات، والاستبيانات، وتاريخ الحالة، والوثائق العامة، والصحف، واليوميات، والمذكرات، وكما هو الحال في ميدلتاون كان الاكتشاف المبكر الهام هو وجود نسق واضح من الطبقات الاجتماعية يؤثر في حياة السكان من جميع الجوانب. وكما هو الحال أيضاً في ميدلتاون اتضح أن وجود الباحثين كان له تأثير ضخم على الوعي الاجتماعي للسكان موضوع الدراسة<sup>(١)</sup>.

بيد أن الاختلافات بين الدراستين تعادل في أهميتها أوجه التشابه بينهما. فقد كان التركيز في ميدلتاون منصّباً على التغيرات الاجتماعية التي حدثت بين ١٨٩٠ و١٩٢٥. أما في يانكي سيتي فقد تمت دراسة التغير بصفة منتظمة عبر فترة زمنية أطول. ويمكن أن تعد ميدلتاون عينة من المجتمع الأمريكي أو على الأقل عينة من وسط غرب أمريكا، أما يانكي سيتي فإنها تمثل شريحة أقل نمطية من الحياة الأمريكية. وقد ساد مشروع يانكي سيتي اهتمام بأمكان معينة وأشخاص بعينهم. وتتمثل أهم الاختلافات المنهجية بين المشروعين في معالجة الجماعات في ميدلتاون على أنها تجمعات Aggregates، في حين تم ترتيب البيانات التي جمعت في يانكي سيتي حسب أسماء الأفراد. ويتكون الجزء الرئيسي من التحليل من تعقب روابط الأفراد وعلاقاتهم باستخدام نظام الملفات (ملف لكل فرد) الذي يجمع المعلومات بشكل فردي عن كل ساكن تقريباً من سكان المدينة.

ويتكون النظام الطبقي في رأي ليرنر من:

"طبقتين أو أكثر من الناس الذين يعتقد أنهم في أوضاع عليا ودنيا وفقاً لترتيب أعضاء المجتمع المحلي. ويفضل الزواج داخل نفس الطبقة، مع أن قيم المجتمع تبيح الزواج بين أفراد ينتمون إلى طبقات مختلفة. كما أن

---

(١) ظهر وارنر ودراسته في شكل قصصي في رواية عن نيو برى بورت كتبها جون ماركواند.  
- John P. Marquand, **Point of No Return**, Boston, Little Brown, ١٩٤٩.

النسق الطبقي يساعد الأطفال أن يظلوا فى نفس مكانة والديهم. ويقوم المجتمع الطبقي بتوزيع الحقوق والامتيازات، والواجبات والالتزامات بدرجة غير متكافئة بين الرتب الدنيا والعليا. ويتميز نسق الطبقات المفتوحة – على عكس نسق الطبقات المغلقة – بقيمه الخاصة بالصعود والهبوط على السلم الاجتماعى. وهذا هو التسلق الاجتماعى باللغة الدارجة، أو الحراك الاجتماعى باللغة المتخصصة. وقد وجدنا أن النسق الاجتماعى فى يانكى سيتى يسوده نظام طبقي"<sup>(١)</sup>.

ويتألف النظام الطبقي من ست طبقات، أو من ثلاث طبقات رئيسية كل منها ينقسم بدوره إلى قسمين. وباللغة الدارجة توجد أسماء لهذه الطبقات تستند إلى أحياء المدينة (مثل سكان شارع هيل، وسكان شارع سايد، وسكان ريفر بروكر). وتدل هذه التسميات كتعبيرات مهذبة عن التصنيفات الطبقيّة. والطبقات الست – بلغة وارنر – هى: العليا – العليا، والعليا – الدنيا، والوسطى – العليا، والوسطى الدنيا، والدنيا العليا، والدنيا – الدنيا. وتتألف الطبقة العليا – العليا من العائلات العريقة التى حافظ أسلافها على وضع قيادى فى المدينة على مدى ثلاثة أجيال على الأقل، وبلى ذلك العائلات الجديدة (العليا – الدنيا) التى يتشابه أسلوب معيشتها مع أسلوب معيشة العائلات العريقة، ولكنه أسلوب مكتسب حديثاً. وتتكون الطبقة الوسطى – العليا من رجال الأعمال وأصحاب المهن الفنية المتخصصة الذين يتمتعون بقدر من الاستقلالية. وتتألف الطبقة الوسطى – الدنيا من صغار التجار والعمال أصحاب الياقات البيضاء. ويشكل عمال المصانع السواد الأعظم من الطبقة الدنيا – العليا. أما الطبقة الدنيا – الدنيا فتتكون من ساكنى ريفر بروكر الذين يعملون بصفة غير منتظمة، ويحصلون على قوت غير مضمون من العمل العرضى، وأعمال الحفر، وصيد البحر، والمهن غير النظامية.

---

(١) وارنر ولنت، نسق المكانة فى المجتمع المحلى الحديث، ص ٨٢.

ويلاحظ أن اليانكيين (وهم الأشخاص المنحدرون من المستوطنين الإنجليز الأول في نيوانجلند) هم الجماعة السائدة. ويشكل اليانكيون من أصل محلي حوالى نصف مجموع السكان، وهم ممثلون فى جميع الطبقات الست خاصة فى الطبقتين العليا والدنيا. وينتمى حوالى ربع السكان إلى جماعات عرقية عديدة بدأت تستوطن يانكى سیتی فى الأربعينيات من القرن الماضى. وهم ممثلون فى جميع الطبقات باستثناء الطبقة العليا – العليا. ويبدو أن جميع الجماعات العرقية ارتفعت مكانتها باطراد وقت إجراء الدراسة مع تزايد نسبة السكان الوطنيين وانتهاء عزلتهم الثقافية عن أغلبية السكان.

ومع أن وارنر أشار أحياناً إلى "تنظيم الحياة" فى يانكى سیتی، فإن النسق الطبقي ليس تنظيمياً بالمعنى المألوف عند عالم الاجتماع، أى نسق اجتماعى له أهداف جمعية واضحة. وحتى الوقت الذى وصل فيه فريق البحث لم يوجد فرد واحد فى هذه المدينة كانت لديه معرفة وافية بالنسق الطبقي، مع أن كل فرد لديه تصور عن بعض ملامحه. وهذا النسق الطبقي نمط تلقائى نتج تدريجياً عن ظروف تاريخية، وأصبح قادراً على الاستمرار لأن نيو برى بورت تتميز بحجم ثابت نسبياً من السكان، ولم تتعرض لأية ضغوط حادة من الخارج.

ومع أن النسق الطبقي فى يانكى سیتی يركز فى النهاية على ملكية رأس المال والوصول إلى الأوضاع من خلال فرص الكسب المختلفة، فإنه يصعب تفسير هذا النسق تفسيراً كاملاً من خلال العوامل الاقتصادية وحدها. فالناس فى كل طبقة أكثر ثراء فى المتوسط عن الناس فى الطبقة الأدنى منها، بيد أن هناك فجوة زمنية – وأحياناً ما تكون فترة زمنية طويلة للغاية – بين أى تغير فى الوضع الاقتصادى للأسرة والتغير المقابل فى مكانتها، لدرجة أن نفرأ من أعضاء الطبقة العليا – العليا يعيشون فى فقر تقريباً، فى حين يحوز بعض أفراد الطبقة الوسطى الدنيا دخولاً مرتفعة. ويبدو أن المحك الرئيسى للنسق الطبقي لا يتمثل فى مقارنة الدخل، بل يتمثل فى مجموعة معقدة ودقيقة ومتشعبة من القواعد يتم بواسطتها اختيار أو رفض

الأفراد لأنماط معينة من العلاقات. فالعضوية التي تبدو هامة ومؤثرة فى يانكى سیتی هی عضوية الأسرة، والزمرة، والرابطة، والجماعة الاقتصادية. ولكل جماعة من هذه الجماعات نمطها الطبقي الخاص بها. فأعضاء نفس الأسرة عادة ما ينتمون إلى نفس الطبقة، وأعضاء الزمرة ينتمون إلى طبقة أو طبقتين متقاربتين، وأعضاء الرابطة ينتمون إلى تشكيلة من الطبقات تبعاً لطبيعتها، أما أعضاء الجماعة الاقتصادية فيتفاوتون تفاوتاً حاداً من الناحية الطبقيّة.

ويدعم النسق الطبقي نفسه بفاعلية واضحة. ويعود ذلك إلى أن الأفراد المستائين يهاجرون إلى مكان آخر، أما الأفراد الذين يظلون موجودين يقبلون قيم يانكى سیتی. ويتوقف أى نوع من أنواع الحراك الصاعد داخل هذا المجتمع على رغبة أشخاص من الطبقة الأعلى فى انضمام الشخص الطامح إلى مكانة أعلى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تكون كل طبقة (حتى الطبقة العليا – العليا) كبيرة بدرجة تمنع أى فرد أو زمرة أن تحتكر الوصول إليها، وأى مرشح للعضوية فى الطبقة حر فى أن يبحث عن مدخل ثان إذا صعب عليه الدخول من المدخل الأول. وهكذا تمضى أرامل الطبقة العليا فى يانكى سیتی حياتهن فى شبكة معقدة من الخدع الخطيرة. ويمكن تفسير كل تجمع اجتماعى – سواء من جانب الباحثين أو من خلال الأشخاص العاديين – بأنه عبارة عن جولة من لعبة مستمرة من أجل إحراز نقاط المكانة. وتتم ممارسة اللعبة بقوة فى قمة السلم حيث تكون المكافأة أعظم، فى حين تتم ممارستها بأسلوب هادئ بين أفراد الطبقة الدنيا.

وقد أسهم مشروع يانكى سیتی – على غرار دراسات ميدلتاون – فى انتشار وجهة نظر الأمريكيين عن مجتمعهم، واتضح أن التنوع المحلى هو أساس تجانس النظم فى المجتمع الأمريكى. مع ذلك فإن هذا التصور كان له ثمنه مادام أن النسق الطبقي الذى نما فى نيو برى بورت كان بطبيعته سريعاً، وغير معترف به، وانحرفاً غير شرعى عن المثل الأمريكية السائدة عن الديمقراطية والمساواة بين الأشخاص. وقد أمكن للباحثين من خلال إظهار معالم هذا النسق أن يغيروا من طبيعته إلى حد ما،

وأن يبرهنوا على صحة حجج من ادعوا مكانة عليا، وأن يجعلوا من الصعب على الجماعات الوسطى والدنيا ادعاء المساواة النظرية، وهو الادعاء الذى كان موجوداً من قبل. ومع الستينيات تم التسليم على نطاق واسع بوجود نسق طبقي فى الولايات المتحدة، كما أن النسق الطبقي المؤلف من ست طبقات الذى وجدته وارنر فى نيو برى بورت موجود فى مجتمعات أخرى دون حاجة للبحث عن ذلك.

\* \* \*

## 6- مجتمع النواصي

### وليام فوت وايت

اكتشف وليام فوت وايت - وهو خريج جامعة هارفارد - مجتمعاً غريباً آخر ولكنه قريب منه أشد القرب، وذلك عندما قام بدراسة منطقة إيطالية حضرية متخلفة (كورنفيل) فى بوسطن فى الفترة بين ١٩٣٧ و ١٩٤٠<sup>(١)</sup>. وتوجد علاقة بين دراسة وايت ومشروع يانكى سيتى. فقد تعلم وايت أساليب العمل الميدانى من كونراد أرينسبرج وإليوت شابل اللذين اكتسبا هذه المعرفة فى يانكى سيتى، كما استفاد من نصائح وارنر فى إعداد تقريره.

ويتمثل الاختلاف البارز بين هاتين الدراستين فى أن وايت قام بهذه الدراسة بمفرده (باستثناء مساعدة محدودة من زميل له ومن زوجته)، واعتمد اعتماداً كبيراً على منهج الملاحظة بالمشاركة. وكان سكان كورنفيل وقت إجراء الدراسة أكبر حجماً إلى حد ما من سكان يانكى سيتى، حيث بلغ عدد سكانها حوالى ٢٠ ألف نسمة. ولم يزعم وايت أنه يدرس النظم الاجتماعية لهذه المدينة دراسة كاملة، والحقيقة أنه أشار إشارات طفيفة إلى الأسرة، والكنيسة، والمدارس، والقطاع الرسمى من الاقتصاد المحلى. وكان موضوع بحثه هو العلاقة التبادلية بين الجمعيات التطوعية للشباب فى

---

(١) William Foote Whyte, **Street Corner Society: The Social Structure of an Italian Slum**, Chicago, University of Chicago Press, ١٩٤٣, Enlarged ed. ١٩٥٥.

كورنفيل والمقامة المنظمة والسياسة. ويصف وايت في القسم الأول من كتابه تطور جمعيتين شارك فيهما، وهما عصابة النواصي التي يطلق عليها "نورتونز" Nortons، وجمعية صغيرة يطلق عليها النادي الإيطالي المحلي Italian Community Club. وأعضاء النورتونز من صبية النواصي الذين لا تتعدى طموحاتهم وفرصهم المجتمع المحلي، أما أعضاء النادي الإيطالي المحلي فهم جامعيون يتطلعون إلى وضع في المجتمع الأكبر.

وكتاب **مجتمع النواصي** له طابع درامى ملحوظ، ولا يوجد مؤلف في تراث علم الاجتماع يتصف بهذه البراعة الفائقة في الوصف والدراما وإثارة العاطفة والشعور. وقليلة تماماً الأعمال الأخرى التي يمكن أن تضارعه في هذه البراعة وهذا التأثير. ويعود هذا الطابع إلى مشاركة المؤلف الوجدانية للناس الذين قام بدراساتهم. وفي موضع من الكتاب يشير وايت إلى أنه تحول تقريباً من ملاحظ غير مشارك إلى مشارك غير ملاحظ. وكان يشعر أنه أقرب إلى النورتونز منه إلى النادي الإيطالي المحلي. وكان دوك Doc قائد النورتونز أول إخبارى له، وأصبح صديقه الحميم ومعاونه. وقصة النورتونز هي إلى حد كبير قصة دوك في أيام مجده الأولى، ثم ضياع هيئته كقائد حالت البطالة الدائمة التي عانى منها بينه وبين الوفاء بالتزامات القيادة، ودفعته في النهاية إلى قطع صلته مع زمريته. أما القصة المختلفة للنادي الإيطالي المحلي فهي إلى حد كبير قصة قائده شيك موريللي Chik Morelli، وهو انتهازي بلا مبادئ على دراية جيدة بالبناء الاجتماعي لكورنفيل. وهي قصة التناحر في صورة مصغرة بين أسود باريتو ورجالهم، وكانت عواطف وايت كلها مع الأسود قليلة الحظ.

القسم الثاني من التقرير عبارة عن دراسة للبناء الاجتماعي لابتزاز الأموال Racketeering في كورنفيل، وكان المبتزون يسيطرون على لعبة الأرقام ويتحكمون فيها، ويحرصون على مهادنة الشرطة، وتوطيد علاقاتهم مع البناء السياسي الذي يشبع الولاء العرقي والاحتياجات المحلية. ومن مميزات دراسة وايت أنها تكشف عن هذا النسق من

أسفل إلى أعلى. وهناك فصل طويل يحدثنا عن كيفية خضوع نادى اجتماعى ورياضى صغير لأحد المبتزين، وكيفية قيام هذا النادى بدور محدود – ولكنه دور هام – فى انتخابات المدينة. إن وضوح أسلوب وايت، ووصفه الدقيق للأحداث، واستخدامه المستمر للاقتباس المباشر يعطى القارئ إحساساً بالمشاركة الشخصية.

وهناك ملمح درامى آخر فى كتاب **مجتمع النواصى**. ففي الوقت الذى قام فيه وايت بدراسة منطقة حضرية متخلفة مع نهاية الكساد العظيم، وكان مهتماً اهتماماً ظاهرياً بالجانب الأسوأ من حياتها (البطالة والإسكان المتخلف، والرشاوى والمرتببات الثابتة التى تدفع لرجال الشرطة، والفساد السياسى، والخدع الانتخابية، والفرص المحدودة)، فإن تعاطفه قاده إلى وصف كورنفيل بأنها مكان يخلو من العنف والحدق أو المعاناة الحقيقية. وقد أنجز مهمته فى دخول المجتمع بنجاح لدرجة أوقعته فى حب مبعوثيه ووقعوا هم فى حبه. فقد كون لنفسه موطناً ثانياً فى أسرة صاحب مطعم محلى، وتعلم الإيطالية، وحاز مكانة مرتفعة بين النورتونز، وكوّن صداقات مع المبتزين، وشارك فى الحملات الانتخابية، بل وأحضر عروسته الجديدة لتعيش معه فى كورنفيل. وفى بعض الأحيان كان وايت ينسى حياده وينحاز إلى جانب القضايا المحلية<sup>(1)</sup>. وبين الحين والآخر كان يمثل لمعايير أصدقائه بدرجة تفوق ما كانوا يتوقعونه منه، مثل مشاركته فى التصويت عدة مرات فى يوم الانتخاب. بل إنه فضل المعلومات غير الوثائقية وغير الإحصائية والبيانات الأولية المأخوذة مباشرة من الميدان بدرجة أكبر من المطلوب حتى يؤكد على أهمية التزامه بالتفاعل الشخصى المباشر.

ومن السلوكيات النمطية التى اكتشفها وايت فى كورنفيل أن صبية النواصى

---

(1) انظر وصفاً للخبرات الشخصية التى اكتسبها وايت من بحثه فى النسخة الموسعة من كتاب **مجتمع النواصى** الذى سبقت الإشارة إليه، وانظر كذلك آرثر فيديش وجوزيف بنسمان وموريس ستاين (مشرفين على التحرير):

Arthur J. Vidich, Joseph Bensman and Maurice R. Stein, eds., **Reflections on Community Studies**, New York, John Wiley, 1964.



يعتقدون "القيم المحلية"، أما الطلبة الجامعيون فإنهم يعتقدون "القيم غير المحلية"، بمعنى أن صبية النواصي يحافظون على الفضائل الأصيلة لمجتمعهم المحيط بهم، في حين نجد أن طلبة الجامعة الذين تأثروا بالأخصائيين الاجتماعيين وغيرهم من مؤسسات المجتمع الأكبر تناسوا التزاماتهم حيال بعضهم بعضاً في سباقهم من أجل الحراك الصاعد.

ويميز وايت في كل تدرج طبقي في كورنفيل نسقاً من ثلاثة مستويات يتألف من صغار القوم، وكبارهم، ووسطائهم. وصبية النواصي هم صغار القوم، أما المبتزون والساسة فهم عليا القوم، أما قادة عصابات النواصي فهم الوسطاء الذين يصلون بينهما. ويمتد هذا النمط إلى التدرج الهرمي فوق الطبيعي حيث أن العباد – شأنهم في ذلك شأن صغار القوم – يتخذون من القديسين ووسطاء ليتشفعوا لهم عند "عليا القوم".

بيد أن التدرج الطبقي في كورنفيل يضم أكثر من هذه الفئات المتدرجة العامة. إذ إن كل رابطة من الرابطين اللتين قام وايت بملاحظتهما لها نظامها الطبقي الدقيق الخاص بها بغض النظر عما يبدو للوهلة الأولى من تميز الرابطة بالبساطة واللا رسمية. واستطاع وايت أن يبين بوضوح اعتماد المكانة على مجموعة من الالتزامات داخل الجماعة، لدرجة أن مكانة الفرد تقيس مقدرته النسبية على الامتثال لقيم الجماعة.

ويكون القائد في كل الأحوال هو النقطة المحورية لبناء الجماعة، وممثلها أمام العالم الخارجي، والقائم بدور الحكم في الداخل، وهو الذي يبادر بأنشطتها الجمعية. وتكون العلاقات الهامة تلقائية مع نائبه، وليست مع تابعيه وأعوانه. وتحدث التغيرات في القيادة عن طريق حدوث تحول في العلاقات بين من يتربعون على قمة البناء، وليس بصعود من يقعون في القاع. وتمثل هذه التغيرات مصدراً لقلق المشتركين فيها أو المعنيين بها. وقد يصاب القائد المخلوع وبعض من أتباعه بالمرض عندما يختل توازن الجماعة.

وربما يكون تأثير نتائج لعبة البولينج Bowling من أكثر الأشياء التي تعلق بالذهن

من دراسة وايت. إذ يعد البولنج أحد الأنشطة الأساسية في زمرة دوك، وهم يعلقون أهمية كبيرة على المهارة في ممارسة هذه اللعبة. وقد افترض وايت في البداية أن مهارة الفرد في لعب البولنج تضيف إلى مكانته في الجماعة، ولكنه انتهى بعد ملاحظة طويلة إلى أن العكس هو الصحيح. إذ إن مكانة عضو الجماعة هي التي تحدد مهارته في البولنج، على الأقل في تلك المناسبات التي تجتمع فيها الجماعة كلها لمشاهدة مباراة هامة. وينخفض مستوى أداء الأعضاء ذوي المرتبة المنخفضة بفعل الضغوط الجافة والحادة من الجماعة، في حين يلقى مؤازرة بأساليب مشابهة. ويصف وايت هذه الظاهرة كتجربة ذاتية له بقوله:

"هنا نجد البناء الاجتماعي يحدث تأثيره في ملاعب البولنج، حيث يضع الأعضاء كل فرد في مكانه، وأنا واحد منهم. ولم أتوقف عندئذ عند تفسير وضعي بالقرب من زعماء الزمرة بحكم صداقتي القوية مع دوك وداني ومايك، ولذلك كان من المتوقع أن أتفوق في هذه المناسبة العظيمة. وقد شعرت ببساطة أن هذا الموقف يملؤني بالثبات. وشعرت أن أصدقائي كلهم معي، ويضعون ثقتهم في، ويريدون مني أن ألعب البولنج جيداً. وعندما جاء دوري وتقدمت لأدحرج الكرة، شعرت بالثقة الزائدة بأنني سوف أصيب القطع الخشبية التي استهدفت التصويب عليها. ولم أشعر بهذه الثقة من قبل ولا من بعد. وهنا لمست عن تجربة ذاتية في ملعب البولنج تأثير بناء الجماعة على الفرد. وقد كان شعوراً غريباً ينتابني كما لو كان شيئاً أكبر مني يتحكم في الكرة عندما سددها في اتجاه القطع الخشبية"<sup>(١)</sup>.

إن المزج بين العناصر الموضوعية والذاتية في كتاب مجتمع النواصي يجعل الواحد منا يتساءل عما يمكن أن يتوصل إليه في نفس الموقف باحث آخر لديه مزاج

---

(١) ويليام فوت وايت، مجتمع النواصي، النسخة الموسعة، ص ص ٣١٨-٣١٩.

مختلف. وتحتاج دراسة مجتمع النواصي إلى تكرارها أكثر من أى دراسة أخرى فى تراث علم الاجتماع. ويصعب تفسير وفهم الأسباب التى دفعت إلى عدم تكرار مثل هذه الدراسة، باستثناء دراسة مشابهة عن مجتمع نواصي الزوج التى قام بها اليوت ليبو<sup>(1)</sup>، والتى اهتمت بدراسة المشكلات المهنية والأسرية، وعرضت لخبرة مختلفة تمام الاختلاف.

\* \* \*

\* \* \*

## 7- اختيار الشعب

### بول لازارسفيلد وآخرون

فى انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٤٠ كان على الناخبين فى مقاطعة ايرى Erie بولاية أوهايو أن يقرروا ما إذا كانوا سيدلون بأصواتهم لصالح الرئيس فرانكلين روزفلت لفترة رئاسة ثالثة، أم لصالح نظيره الجمهورى وندل ويلكى، أم سيعزفون عن الاشتراك فى الانتخابات كلية. وقد قام لازارسفيلد – وهو مؤسس مكتب البحوث الاجتماعية التطبيقية فى جامعة كولومبيا – بإجراء بحث للكشف عن كيفية اتخاذ هذا القرار. وتقل عدد صفحات تقرير نتائج البحث<sup>(٢)</sup> عن مائتى صفحة، غير أن هذا البحث كانت له آثار بعيدة المدى على النظرية والممارسة السياسية فى الولايات المتحدة، وضرب هذا البحث مثلاً يحتذى به فى المسوح السياسية التى وفرت تراثاً غزيراً منذ ذلك الوقت حول العوامل التى تحدد نتائج الانتخابات فى البلاد الديمقراطية<sup>(٣)</sup>.

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٠١٨.

(٢) Paul F. Lazarsfeld, Bernard Berelson, and Hazel Gaudet, **The People's Choice: How the Voter Makes Up His Mind in a Presidential Campaign**, New York; Duell, Sloan and Pearce, ١٩٤٤.

(٣) ظهرت فيما بعد طائفة من الدراسات التى تناولت انتخابات الرئاسة الأمريكية فى الولايات المتحدة نذكر من بينها الدراسات التالية:

- Bernard Berelson, Paul Lazarsfeld and William McPhee, **Voting: A Study of Opinion Formation in a Presidential Campaign**, Chicago, University of Chicago Press, ١٩٥٤;

- Angus Campbell, Gerald Gurin and Warren Miller, **The Voter Decides**, Evanston, III., Row, Peterson, ١٩٥٤;

- Heinz Eulau, **Class and Party in the Eisenhower Years: Class Roles and Perspectives in the ١٩٥٢ and ١٩٥٦ Elections**, New York, Free Press, ١٩٦٢;

- Ithiel de Sola Pool, Robert Abelson and Samuel Popkin, **Candidates**,

وقد جاء مشروع بحث مقاطعة ايرى نتيجة للاستخدام المكثف لاستطلاعات الرأى العام لتقدير اتجاهات الناخبين فى الحملات الانتخابية فى الثلاثينيات، كما جاء نتيجة لبحوث جمهور المستمعين والقراء التى قامت بها الشبكات الإذاعية والمجلات القومية فى نفس الوقت لمضاعفة تأثير حملاتها الدعائية. وقد تم تدبير الجانب الأكبر من تمويل هذا البحث من جانب إحدى المجلات القومية وإحدى مؤسسات بحوث الرأى العام.

وقد جمعت البيانات بواسطة باحثين قاموا بزيارة عينة إحصائية ممثلة للسكان، وحصلوا على إجاباتهم على استبيان مقنن. وكانت هذه الدراسة – مع ذلك – أكثر دقة وإحكاماً مما هو مألوف فى مسح الرأى العام. وقام الباحثون بزيارة المنزل الرابع فى كل شارع من شوارع المقاطعة لتحديد إطار معاينة مكون من ٣٠٠٠ ناخب تقريباً على أن يكونوا ممثلين لجملة السكان من حيث: العمر والنوع والإقامة والتعليم وامتلاك الهاتف والسيارة، والموطن الأصلى. تم اختيار أربع عينات من هذا الإطار، وتتكون كل عينة من ٦٠٠ مفردة تتشابه فى الخصائص السابقة. ووقع الاختيار على إحدى هذه العينات لتكون العينة الأساسية، وتمت مقابلة مفرداتها مرة كل شهر من مايو إلى نوفمبر من ذلك العام. وجرت المقابلة الأولى قبل انعقاد مؤتمرات الترشيح التى تعقدها الولايات، وتمت المقابلة الأخيرة بعد إجراء الانتخابات. أما مفردات العينات الثلاث الأخرى فقد تمت مقابلتهم على فترات مختلفة. وتمثل هذه العينات الثلاث مجموعات ضابطة لاختبار تأثير تكرار المقابلة على العينة الأساسية.

وقد ركزت الدراسة على اتجاه المبحوثين فى عملية التصويت فى انتخابات شهر نوفمبر، والتغيرات التى طرأت على هذا الاتجاه من مقابلة إلى أخرى. وإذا حدث تغير ما فى اتجاه التصويت لدى المبحوث يتم سؤاله عن أسباب ذلك تفصيلاً وعن الملابس المرتبطة به. وتم تسجيل اتجاهات المبحوثين عند تعرضهم لحملات الدعاية

---

**Issues and Strategies: A Computer Simulation of the ١٩٦٠ and ١٩٦٤ Presidential Elections**, Cambridge, Mass., M. I. T. Press, ١٩٦٥.

الانتخابية تسجيلاً دقيقاً. ولم يضم التقرير المطبوع نص الاستبيان، غير أننا نعلم أنه يتضمن معلومات وافية حول سمات المبحوث الشخصية (البيانات الأساسية)، وفلسفته الاجتماعية، وتاريخه السياسي، وسمات شخصيته، وعلاقته مع الأصدقاء والأقارب، وعضويته في التنظيمات، وانتمائه الديني، وآرائه في القضايا الجارية.

وتتلخص النتيجة الرئيسية لهذه الدراسة في أن اختيار الأغلبية العظمى من الناخبين يمكن التنبؤ به من خلال ثلاث خصائص اجتماعية فقط هي: المكانة الاجتماعية – الاقتصادية، والانتماء الديني، والإقامة الريفية أو الحضرية. إذ يتبين أن المكانة المرتفعة، والنزعة البروتستانتية والإقامة الريفية تجعل الناخبين يميلون إلى المرشح الجمهوري، في حين أن المكانة المنخفضة، والنزعة الكاثوليكية والإقامة الحضرية تجعل الناخبين يميلون إلى المرشح الديمقراطي. وقد أمكن للباحثين باستخدام هذه العوامل وحدها أن يصمموا مقياساً للتعرف على التوجه السياسي للفرد، ويفيد في التنبؤ بالسلوك الانتخابي بصفة عامة. وقد وصل الباحثون إلى هذه النتيجة على الرغم من أن قياس هذه الخصائص الثلاث كان قياساً تقريبياً إلى حد كبير. فقد اعتمد تقدير المكانة الاجتماعية – الاقتصادية مثلاً على التقدير الذاتي للمبحوث لمسكنه وممتلكاته ومظهره وطريقة كلامه. ولم يتم قياس الانتماء الديني بالمواظبة على التردد على الكنيسة أو أي مقياس آخر من مقاييس المشاركة الدينية.

ويتأثر اختيار الناخب بتاريخه السياسي إلى حد ما بالإضافة إلى خصائصه الاجتماعية. فقد اتضح على سبيل المثال أن جميع الجمهوريين الذين أعطوا أصواتهم لصالح لاندون ضد روزفلت عام ١٩٣٦ قد أعطوا أصواتهم لويلكي عام ١٩٤٠. وهناك مثال آخر هو أن معظم الناخبين الجدد ساروا على نفس التفضيلات الحزبية لوالديهم عندما أدلوا بأصواتهم للمرة الأولى.

ويتمثل الأثر الصافي لهذه العوامل المتعددة في انخفاض عدد الناخبين الذين يمكن أن يتأثر قرارهم بالحملات الانتخابية إلى أقلية صغيرة جداً من الناخبين. وقد أصبح هؤلاء الناخبون – غير المستقرين سلفاً على موقف معين أو غير الملتزمين –

هدفاً أساسياً لكل حملة سياسية منظمة. ومع ذلك يصعب الوصول إلى هؤلاء الناخبين كما أوضحت دراسة مقاطعة إيرى. إذ أن الناخبين الأكثر اهتماماً بالانتخابات، والذين يشاركون في حملات الدعاية والذين يعرضون أنفسهم للاتصالات السياسية يتخذون قرارهم قبل إجراء الانتخابات أو حتى قبل انعقاد مؤتمرات الترشيح فى كل ولاية. ونجد من بين الناخبين المترددين أعداداً ضخمة من النساء، وصغار السن، والفقراء، وغير المتعلمين. وقد لا يدلى هؤلاء بأصواتهم إذا فتر اهتمامهم قليلاً.

وليس الناخب اللامبالي وحده هو الذى يؤجل قراره. إذ يتعرض الناخبون لضغوط متعارضة عندما ينتمون إلى جماعات ذات اتجاهات متعارضة فى التصويت. إذ يتعرض أغنياء الكاثوليك لضغوط متعارضة، ومن ثم يميلون إلى تأجيل قرارهم، كما لو كانوا ينتظرون الأحداث كى تبدد هذه الضغوط المتصارعة. ومن بين الضغوط المتعارضة التى توصل الباحثون إلى التعرف عليها تبين أن أكثرها تأثيراً فى تأجيل القرار هو انعدام الاتفاق داخل أسرة الناخب بسبب انقسام الرأى بين أفراد الأسرة. بل إن بعض الناخبين يظلون على ترددهم إلى أن يدخلوا بالفعل حجرة الاقتراع، ولكنهم يبددون هذه الضغوط المتعارضة بأن يصوتوا على نفس طريقة أقرب الأقرباء إليهم. ومن أبرز النتائج المهمة لهذا البحث أن نفس العوامل التى تجعل الناخب يميل إلى اتخاذ قرار مبكر بشأن مرشح أو آخر تستمر فى تأثيرها عندما يعجز عن اتخاذ نفس القرار. ويتأثر اختياره النهائى فى الاتجاه المعتاد بخصائصه الاجتماعية حتى فى مثل هذه الظروف.

وتلقى كل هذه النتائج بظلال من الشك على رشد العملية السياسية، وعلى أهمية الادعاءات التى يستند إليها المرشحون والأحزاب فى محاولة التأثير على الناخبين. ويتعمق هذا الشك عندما نكتشف أن التعرض للوسائل الدعائية يتحدد بنفس الطريقة التى يتم بها اتخاذ قرار التصويت. ويلاحظ أن أكثر الناخبين اهتماماً ومعرفة هم الذين يتخذون قرارهم مبكراً، كما أنهم يكونون أكثر عرضة للوسائل الدعائية وأكثر إحجاماً عن التعرض للوسائل الدعائية للمرشحين الذين اختاروهم بالفعل. أما الناخبون الذين

لم يقرروا بعد كيفية التصويت يعرضون أنفسهم بدرجة أكبر لدعاية الحزب الذى يميلون إليه متأثرين فى ذلك بالعوامل الاجتماعية المألوفة.  
وقد كان لازارسفيلد وزملاءه مقتنعين بأن الإقناع العقلى ليس له علاقة تذكر بالطريقة التى يتخذ بها الناخب قراره:

"تمثل المناظرات المرحلة الأخيرة من اتخاذ القرار باعتبارها مؤشرات عليها أكثر منها مؤثرات فيها. وهى تشير - شأنها فى ذلك شأن لافتات المرور على الطريق - إلى الممر الذى ينبغى السير فيه للوصول إلى المكان المقصود الذى تم تحديده واختياره بالفعل. ويتحدد الهدف من خلال النزعة السياسية المسبقة والولاءات الجماعية، فكل ما يقرأ ويسمع يصبح مفيداً ومؤثراً لأنه يوجه الناخب إلى قراره الذى اختاره. وبالتالي لا تقوم المناظرة الحاسمة بوظيفة إقناع الناخب بسلوكه، إذ أن الناخب مزود بقوة دافعية. وتقوم المناظرة بوظيفة تحديد طريق التفكير والسلوك للناخب، وهذا الطريق يمثل نصف الرغبة. وليست الدعاية الانتخابية هى محاولة للكتابة على صفحة بيضاء (هى عقل الجمهور)، بل هى ما تظهر للرجال والنساء أن أصواتهم تعبير طبيعى ومنطقى وحتمى عن الاتجاهات التى يتبناها كل منهم بالفعل"<sup>(١)</sup>.

ويناقش الجزء الأخير من كتاب اختيار الشعب، التجانس السياسى للجماعات الاجتماعية، ويوضح كيف أن الارتباطات التى اتضحت من قبل تقوم على احتمال قوى مؤداه أن الناس الذين يعملون أو يعيشون معاً يعطون أصواتهم لنفس المرشح، إما من خلال اختيار تلقائى أو بسبب ممارسة تأثير شخصى. وتكون المحصلة الطبيعية للمناظرات السياسية التى تحدث خلال الحملات الانتخابية بين الأصدقاء والجيران والأقارب هى تعزيز الرأى السائد داخل كل جماعة اجتماعية. وهذا التأثير يضارع

---

(١) بول لازارسفيلد وزملاؤه، اختيار الشعب، مرجع سابق، ص ص ٨٣-٨٤.



تأثير المرشح المحتمل فوزه في جمهور الناخبين بصفة عامة. ويتوقع الناس أن يفوز المرشح الذي يفضلونه، ويكون العكس صحيحاً أيضاً بمعنى أنهم يفضلون أحد المرشحين في بعض الأحيان لأنهم يتوقعون فوزه.

ولا تتكرر السياسة الأمريكية على نفس المنوال مرة ثانية. وقد خلص كتاب **اختيار الشعب** إلى أن الطرف الذي يستطيع تعبئة الجماهير لتأييده بطريقة الخبراء ترتفع فرص نجاحه، وإن الذين يمارسون السياسة بطريقة الخبراء ينبئون كالنبات الذي يترعرع في الأرض. وقد تغلغت نتائج هذه الدراسة في العملية السياسية خلال الستينيات لدرجة أن إعلانات التليفزيون عن نتائج الانتخابات، وتحليل اتجاهات التصويت حسب الدخل والدين والعمر والسلالة والمهنة وعضوية النقابات وغيرها من العوامل (التي تحدد التوجه السياسي) أصبحت تعد أموراً طبيعية شأنها في ذلك شأن نتائج الانتخابات نفسها. ومن حسن الحظ أن نتائج بحوث التصويت تكون متاحة بنفس القدر لكل منافس سياسي، وبالتالي لا تغير من الطبيعة التنافسية للحملات الانتخابية على نحو ما كان يحدث من قبل.

\* \* \*

## 8- الجندى الأمريكى

### صمويل ستوفر وآخرون

بعد الهجوم اليابانى على بيرل هاربور بفترة قصيرة تم تعيين عالم الاجتماع المشهور صموئيل ستوفر مديراً مديراً لفرع البحوث Research Branch المنشأ حديثاً، والذي أصبح فيما بعد إدارة المعلومات والتعليم بالقوات المسلحة الأمريكية. ورأس هذه الإدارة الجنرال فريدريك أوسبورن، وهو رجل أعمال سابق وعالم اجتماع أيضاً، وقد أنشئ فرع البحوث - كما يقول ستوفر - للقيام بمهام هندسية اجتماعية وليست مهاماً علمية. وكانت وظيفته هي إجراء مسح الاتجاهات بين الجنود عندما تشعر الإدارات العليا بمشكلات تحتاج إلى معلومات شاملة ذات طبيعة مسحية. فقد طالبت

تلك الإدارات على سبيل المثال تحليل العوامل التي جعلت الجنود في مسرح العمليات بجنوب المحيط الهادى ينفرون من استخدام عقار الأتبرين للوقاية من الملاريا، والكشف عن أى نوع من نوعى الأكواخ الذى يفضله الجنود فى الأسكا، ودراسة حالة مغاسل الملابس فى بنما، واتجاهات الجنود نحو الصينيين فى مسرح العمليات بالهند وبورما. ويعد كثير من هذه الموضوعات تافهاً، غير أن بعضاً منها له أهمية واضحة. فقد قام فرع البحوث على سبيل المثال بتصميم نظام النقط Point System الذى استخدم فى تحديد الأولويات لتشغيل الجنود عند تسريح القوات المسلحة مع نهاية الحرب. كما أن دراسات هذا الفرع وفرت المعلومات اللازمة للتشريع الخاص بمساعدة المحاربين القداماء خاصة ميثاق الحقوق والذى أدى بصفة دائمة إلى التوسع فى النظام الأمريكى للتعليم العالى.

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية قام فرع البحوث بمقابلة ما يزيد عن ٥٠٠ ألف شخص بالاستعانة بأكثر من ٢٠٠ استبيان مختلف، وقام بإعداد عدة مئات من التقارير عن نتائج لأغراض عسكرية متعددة. ومع ذلك لم تستغل مطلقاً القيمة العملية لهذه البيانات الغزيرة. وقد عهد بهذه المهمة إلى لجنة خاصة بمجلس بحوث العلوم الاجتماعية برئاسة الجنرال أوسبورون، ونفذت تحت إشراف البروفسير ستوفر بمنحة من مؤسسة كارنيجى فى السنوات الخمس التى أعقبت الحرب. وهكذا تحول فرع البحوث فى ظل نفس القيادة إلى فريق بحث علمى برعاية مدنية. وقد نشرت النتائج فى أربعة مجلدات تحت عنوان **دراسات فى علم النفس الاجتماعى فى الحرب العالمية الثانية<sup>(١)</sup>**، والتى اشتهرت باسم **الجندي الأمريكى** من عنوان المجلدين

---

(١) وهذه الدراسات هى:

- Studies in Social Psychology in World War II**, ٤ Vols.  
- Vol. I: Samuel A. Stouffer et al., **The American Soldier, Adjustment During Army Life**, Princeton, N. J., Princeton University Press, ١٩٤٩;  
- Vol. II: Samuel A. Stouffer et al., **The American Soldier: Combat and Its Aftermath**, Princeton, N. J., Princeton University Press, ١٩٤٩;  
- Vol. III: Carl Hovland, Arthur Lumsdaine and Fred Sheffield, **Experiments on Mass Communication**, Princeton, N. J., Princeton

الأولين.

وكان هذا المشروع – على غرار مشروع ميردال – تعاونياً على أوسع نطاق، إذ وصلت قائمة الأشخاص العلميين والإداريين إلى ١٣٤ إسماء، وتبرز صفحات العناوين فى المجلدات الأربعة أسماء خمسة عشر مؤلفاً رئيسياً. ولم يضارع أى بحث اجتماعى بعد ذلك هذا البحث فى مجاله.

وعلى الرغم من اعتمال كتاب **الجندي الأمريكى** على علوم عديدة خاصة علم النفس وعلم النفس الاجتماعى، فإنه يعد سوسيولوجياً فى منهجه (مسوح الاتجاهات Attitude Survey) وفى طبيعة نتائجه. كما أن معظم التفسيرات والتحليلات التى تلت نشر هذا الكتاب ركزت على المضامين السوسيولوجية للبيانات لا على أهميتها النفسية أو التاريخية أو الإدارية.

ويختص المجلد الأول من التقرير بالتكيف الشخصى للجنود خاصة جموع الجنود المدنيين الذين خدموا فى الجيش بصفة مؤقتة أثناء الحرب العالمية الثانية. ويهتم المجلد الثانى بالمشكلات المتعلقة بالحرب وما بعدها. ويبحث المجلد الثالث رد فعل جمهور المشاهدين العسكريين للأفلام التوجيهية وغيرها من المواد الدعائية. ويبعد هذا المجلد عن موضوع بقية الكتاب إلى حد ما. ويتضمن المجلد الرابع معالجة دقيقة لنظرية قياس الاتجاهات وتطبيقها، ومناقشة لثلاثة مناهج دقيقة لتحليل بيانات المسح، وهى: تحليل المقاييس، وتحليل البناء الكامن، واستخدام استجابات المسح لأغراض تنبؤية.

وتتميز موضوعات المجلدات الأربعة بالغزارة والارتباط الوثيق لدرجة أن التفسيرات اللاحقة سارت على طريقة الرجل الهندوسى الأعمى الذى وصف أحد الأفيال بأنه يشبه الحائط، أو الجبل، أو الشجرة، أو المروحة، أو الثعبان حسب الجزء

---

University Press, ١٩٤٩;

- Vol. IV: Samuel Stouffer et al., **Measurement and Prediction**, Princeton, N. J., Princeton University Press, ١٩٥٠.

الذى يلمسه من جسم الفيل. ولذلك يذهب إدوارد شيلز في مقالته الشهيرة إلى أن الروح المعنوية للجندي المقاتل تعتمد بصفة أساسية على روابط جماعته الأولية في الجيش<sup>(١)</sup>، وأن هذه الروابط تقلل من اعتماد الروح المعنوية للجندي المقاتل على الصلاة التي تعد أكثر أهمية من رفقة السلاح.

وقد أكد عدد من المحللين البارعين على نحو مماثل على تأثير الحرمان النسبى. فقد لوحظ على سبيل المثال أن الزوج في المعسكرات الشمالية كانوا أسوأ تكييفاً بصفة عامة من الزوج في المعسكرات الجنوبية، لأن أساس المقارنة عند الجندي في الجنوب والشمال على حد سواء كان وضع الشخص المدني، وأن الوضع السيئ للزنجى المدني في الجنوب كان بمثابة معادل للمعاملة السيئة للزوج في المعسكرات الجنوبية. وقد أدى هذا التأكيد إلى تحويل الاهتمام عن بعض النتائج الهامة حول الحرمان المطلق، ومنها أيضاً الاكتشاف الذى مؤداه أن الوحدات العسكرية تبدأ في التفكك عندما تتعرض للقتال أو لأية صورة أخرى من صور المعاناة لفترات طويلة.

كما أدى تأكيد المحللين على تأثير الدور والمكانة في تعديل الاتجاهات (بمعنى أن الاختلافات في الدور والمكانة لا تؤدي فحسب إلى الاختلافات في الاتجاه، وإنما تؤدي أيضاً إلى الخطأ في حكم جماعة على جماعة أخرى) أدى إلى إغفال نتيجة هامة هي أن الجيش وقت الحرب يعمه الاستياء من سوء استخدام امتيازات الرتبة، وأن هذا الشعور له آثار عكسية شديدة على الروح المعنوية باستثناء القوات الجوية التي تسودها ظروف مختلفة.

وربما يعد كتاب **الجندي الأمريكى** بمثابة انتقاد شديد لواحد من أكبر التنظيمات التي عرفها المجتمع الحديث والذي أعده أفراد من داخل التنظيم نفسه. وعلى عكس الدراسات المبكرة للمجتمع المحلى والدراسات الحديثة للأنساق التنظيمية التي توصلت

---

(١) Edward Shils, "Primary Groups in the American Army", pp. ١٦-٣٩, in: **Continuities in Social Research: Studies in the Scope and Method of "The American Soldier"**, ed., Robert K. Merton and Paul Lazarsfeld, New York, Free Press, ١٩٥٠.

إلى أن معظم الناس راضون عن الأنساق الاجتماعية التي وجدوا أنفسهم فيها، كشفت بيانات الجندي الأمريكي عن حالة ملحوظة لملايين الرجال المشغولين بنضال شديد من أجل مثل اجتماعية مطلقة في الوقت الذي لا يوجد فيه التزام حقيقي بهذه القضية بين أعداد ضخمة منهم، ولا توجد لديهم ثقة في قادتهم، ولا يوجد لديهم شيء سوى احتقار المعايير التي تنظم حياتهم. وهناك ثلاثة من كل خمسة مقاتلين خدموا في معارك ما وراء البحار كانت لديهم شكوك حول مشروعية الحرب عام ١٩٤٥<sup>(١)</sup>.

وكان الجيش الأمريكي في الحرب العالمية الثانية يتكون في معظمه من رجال جندوا بهدف كسب حرب ظلت أهدافها الأيديولوجية غامضة عليهم بعض الشيء. ويوضح المجلد الثالث دون إشارة مقصودة كيفية ظهور هذا الوضع وأسباب عدم المقدرة على معالجته. ويتعلق معظم التجريب في هذا المجلد برد فعل الجنود نحو سلسلة أفلام رائعة بعنوان "لماذا نقاتل؟"، والتي تعيد إلى الأذهان الأحداث التي أفضت إلى الحرب، كما لو كان الجنود الذين يشاهدون تلك الأفلام لم يسمعوا مطلقاً عن هذه الأحداث، أو ليست لديهم آراء بشأنها وقت حدوثها. وهذا يفسر أسباب قبول مغزى هذه الأفلام بين المشاهدين العسكريين وتأثيرها المحدود على اتجاهاتهم نحو الحرب.

وهناك تجارب أخرى في الاتصال تتعلق بالدعاية، وهي تجارب نظرية وبسيطة. فعلى سبيل المثال تم إعداد نوعين من البرامج الإذاعية بعد انتهاء الحرب في أوروبا لإقناع الجنود بأنه لا يوجد مبرر وراء تفاؤلهم بسلام مبكر في المحيط الهادئ (وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن تفاؤلهم كان له ما يبرره). وكانت القضية المثارة هي ما إذا كان البرنامج الإذاعي الذي يقدم المزاعم وراء الموقف الرسمي (المنشائم) أكثر إقناعاً من البرنامج الإذاعي الذي يقدم المزاعم وراء الموقفين التفاوضي والتشاؤمي في محاولة لتفنيد المزاعم المعارضة للموقف الرسمي. وكان تأثير هذين البرنامجين متعادلاً في بداية الأمر. فقد تغيرت آراء ما يقرب من نصف المشاهدين في كلتا الحالتين إلى الاتجاه المرغوب فيه، غير أنه بدأت اختلافات حادة في تأثير البرنامجين عند تقسيم

---

(١) انظر: ستوفر وزملاؤه، دراسات في علم النفس الاجتماعي في الحرب العالمية الثانية، المجلد الأول، شكل رقم ٢، ص ٤٤.

المشاهدين إلى جماعات فرعية. فقد كان البرنامج الذى استعرضه الموقفين التفاضلى والتشاؤمى أكثر إقناعاً لمن كانوا يعارضون الموقف الرسمى منذ البداية، وأقل إقناعاً من البرنامج الذى عرض لوجهة نظر واحدة لمن كانوا فى صف الموقف الرسمى. وكان البرنامج ذو الموقف الواحد أكثر تأثيراً فى الجنود الأقل تعليماً، فى حين كان البرنامج ذو الموقفين أكثر تأثيراً فى الجنود خريجي المدارس العليا والجامعات. وتبدو الاختلافات فى التأثير أكثر وضوحاً عندما يؤخذ فى الاعتبار الآراء المسبقة (التي تكونت قبل التجربة) والمستوى التعليمى. فعلى سبيل المثال أدى البرنامج ذو الموقفين إلى إقناع ٤٤% من الجنود الأكثر تعليماً (الذين كانوا يعارضون الموقف الرسمى فى البداية) بالاتجاه المرغوب فيه، كما أحدث نفس البرنامج تأثيراً عكسياً صافياً بين الجنود الأقل تعليماً الذين كانوا فى صف الموقف الرسمى منذ البداية.

وقد أجريت هذه التجارب بدون تحفظ على أمل تعليم السلطات العسكرية كيفية التأثير فى آراء وعواطف ضباط الصف والجنود. وقد أنشئ فرع البحوث – كما أشار ستوفر إلى ذلك مراراً وتكراراً – بغرض الهندسة الاجتماعية باعتبارها سلاحاً فى يد الإدارة العسكرية، وكان الالتزام الصادق من جانب الباحثين بالجهود الحربية هو الذى ساعدهم فى تعضيد الأهداف الإدارية للقيادة العليا دون تردد. وعند اكتشاف خلل فى نسق الإدارة العسكرية تتم معالجته على أنه مشكلات معنوية. ولم يهتم فرع البحوث بإمكانية إصلاح النسق العسكرى بالطرق المناسبة، لأن ذلك لم يدخل ضمن اختصاصات القادة الذين كان فرع البحوث يحاول مساعدتهم. ولم تكن الإصلاحات التى تمت بفضل النتائج البحثية ذات تأثير يذكر. وقد عولجت شكوى جنود المشاة بأنهم لا يعاملون نفس معاملة الجنود فى الأفرع الأخرى من خلال منحهم شارة الشرف. واقترح الباحثون إجراءات جديدة للأخذ بها فى فترة السلام بعد الكشف عن سوء استخدام الأنساق العسكرية للسلطة من خلال القنوات السرية للمفتش العام. وقد وجهت انتقادات حادة إلى وجهة النظر الواحدة بعد طبع التقرير، غير أن أصحاب هذه الانتقادات لم يحاولوا الاستفادة من البيانات الغزيرة التى وردت فى كتاب **الجندي الأمريكى** لتطوير برنامج منظم لإصلاح المؤسسات العسكرية. وكانت الإصلاحات الرئيسية التى تمت فى الجيش بعد الحرب العالمية الثانية مجرد إصلاحات داخلية

متعلقة بتحقيق العدالة العسكرية أو دعمها، وهو الموضوع الذى لم يعالجه كتاب الجندى الأمريكى.

\* \* \*

## 9- تقارير كينزى

### الفريد كينزى

قرر الدكتور الفريد كينزى حوالى عام ١٩٣٨ أن يقوم بدراسة السلوك الجنسى البشرى. وكان كينزى عالم حيوان فى جامعة انديانا تميز بدمائة خلقه وحيائه، وعمل عدة سنوات فى دراسة هامة عن حشرة الدبور. وبحلول عام ١٩٤٨ كان كينزى ومساعدوه قد قابلوا ما يزيد عن اثنى عشر ألف أمريكى من جميع الأعمار ومن الذكور والإناث بالاستعانة باستبيان عن التاريخ الجنسى احتوى على ٥٢١ بنداً. وقد سجلت الإجابات بالاعتماد على ترميز خاص أعده أحد المتخصصين. وتم حفظ ملفات مشروع البحث كما لو كانت تحتوى على أسرار عسكرية.

وقد قام كينزى نفسه بإجراء معظم المقابلات على مدى سنوات عديدة، ولم يكن معه سوى عدد قليل من المشاركين الذين تميزوا بمستوى فذ من الحنكة والمهارة فى إجراء المقابلات خلال سنوات طوال مع آلاف الأشخاص من جميع الأقاليم والمهن والمستويات الاجتماعية – الاقتصادية وأنماط الشخصية. فقد قابلوا المجرمين، والراهابات، وأصحاب الجرائم الجنسية، والعوانس الطاعنات فى السن، والمقامرين، والقوادين، وربات البيوت، والأطباء النفسيين. وكان هدفهم الوصول إلى قطاع مستعرض من السكان الأمريكيين يمثل المجتمع الأمريكى. وعلى الرغم من وجود بعض الثغرات فى إجراءات المعاينة، فقد نجحوا فى هذه المهمة.

وشملت المقابلة جميع صور السلوك الجنسى، بمعنى أى نوع من أنواع النشاط الجسدى الذى يؤدى إلى الإثارة الجنسية. وكان تصنيف كينزى للسلوك الجنسى تصنيفاً سلوكياً. بمعنى أنه اهتم بالمظاهر الجنسية الواضحة والفسولوجية مع وجود

استثناءات محددة. فقد استبعد المشاعر والعواطف بدرجة كبيرة، ومما يلاحظ هنا أن كلمة "الحب" لم ترد في فهرس التقريرين الرئيسيين. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى اتسعت فئة السلوك الجنسي لتشمل إلى جانب النشاط الجنسي الطبيعي مع الجنس الآخر، بعض أنواع النشاط الجنسي غير الطبيعي كالاتصالات الجنسية المثلية، والاستمناء، والاحتلام، والاتصال الجنسي مع الحيوانات.

وتتمثل النتائج الرئيسية لدراسة كينزى فيما يلي:

١- أن الصور الرئيسية للنشاط الجنسي غير الشرعي ليست نادرة، ولكنها تنتشر في المجتمع على نطاق واسع.

٢- أن الدوافع الجنسية أكثر تبكيراً وكثافة واتساقاً واستمراراً واختلاطاً (أي الرغبة في الاتصال بالجنس الآخر) بين الذكور عنها في الإناث.

٣- أن الأفراد من نفس العمر والطبقة والنمط الاجتماعي يختلفون اختلافاً شديداً في نشاطهم الجنسي كما وكيفاً.

٤- أن تكرار النشاط الجنسي يتأثر تأثراً قوياً بالعمر والنوع والانتماء الديني والمستوى التعليمي والإقامة الريفية - الحضرية والمستوى المهني.

٥- أنه لا يوجد اتجاه واضح يدل على تزايد عدم الامتثال لمعايير الجنس الاجتماعية وقت إجراء الدراسة.

ويلاحظ أن النتائج المتعلقة بانتشار صور النشاط الجنسي المحرمة بالقانون أو القواعد الدينية أو بالأعراف في الولايات المتحدة قد شددت الرأي العام على ما هو متوقع، لأنها غيرت الصورة الموجودة عن الحياة الجنسية في أذهان معظم الباحثين تغييراً كبيراً، بما فيهم أولئك غير الملتزمين بالقواعد الاجتماعية. وكان معظم المبحوثين يعتقدون أن سلوكهم أكثر انحرافاً عما هو في الواقع فعلاً، وهم على وعى بنشاطهم الجنسي المخالف، ولكنهم لا يدركون مدى انحراف آخرين في أنشطة مماثلة.

وقد تضمنت نتائج البحث معلومات وبيانات دقيقة عن ممارسة الجنس قبل الزواج بالنسبة للرجال والنساء، وعلاقة ذلك النشاط بالمتغيرات الاجتماعية



الاقتصادية كالتعليم والمهنة والدخل وغيرها.

وطبيعي أن تحوى النتائج بيانات مفصلة ودقيقة عن العلاقات الجنسية لكل من الزوجين خارج إطار العلاقة الزوجية (الخيانة الزوجية). وهى جميعاً سلوكيات تتصل بالمجتمع الأمريكى وأسلوب حياته، ومفهوم أبناء هذا المجتمع للحريات الشخصية وغير ذلك.

وإذا كانت دراسة كينزى قد قدمت شواهد على عدم الامتثال الكامل للقواعد الاجتماعية التقليدية، فإنها لا تعنى أبداً أن المعايير السائدة غير مجدية بصفة عامة كما توصل إلى ذلك بعض القراء الذين قرأوا تقارير كينزى قراءة متعجلة غير مدروسة. إذ أن نسبة الفتيات اللاتى حافظن على عذريتهن كانت مرتفعة. كما أن أكثر من نصف عدد الأزواج وأكثر من ثلاثة أرباع الزوجات كانوا مخلصين لأقرانهم حتى وقت إجراء المقابلات. وتحدث معظم صور الجنسية المثلية فى طور المراهقة أو فى ظل ظروف خاصة، كما أن غالبية الذكور والإناث لم يمروا بهذه التجربة على الإطلاق.

وقد ظهر التقرير الخاص بالذكور عام ١٩٤٨، وظهر التقرير الخاص بالإناث عام ١٩٥٣<sup>(١)</sup>. ولقى هذان التقريران اهتماماً على مستوى عالمى. وتوفى الدكتور كينزى عام ١٩٥٦. وقام المشاركون فى الدراسة بإعداد مجلدين آخرين أولهما بعنوان **الحمل والولادة والإجهاض** ظهر عام ١٩٥٨، وثانيهما بعنوان **تحليل أنماط الجرائم الجنسية** ظهر عام ١٩٦٥. ولم يكن لهذين الكتابين صدى لدى الرأى العام مع أنهما يضمنان معلومات غزيرة لم تكن متاحة من قبل.

ويعد نشر تقارير كينزى بمثابة نقطة تحول هامة فى البحث الاجتماعى. ولا يعود

---

(١) Alfred C. Kinsey, Wendell Pomeroy and Clyde Martin, **Sexual Behavior in the Human Male**, Philadelphia, Saunders, ١٩٤٨; Alfred Kinsey and Others, **Sexual Behavior in the Human Female**, Philadelphia, Saunders, ١٩٥٣.

ومما يذكر أنه بعد وفاة الدكتور كينزى فى عام ١٩٥٦، تابع زملاؤه ومساعدوه العمل فى مشروع البحث. ولكن المطبوعات التى صدرت عن عملهم بعد ذلك جاءت موجهة إلى المتخصصين وليس إلى الجمهور العام.

ذلك فحسب إلى تقديم بيانات وفيرة عن النشاط الجنسي، وإنما يعود أيضاً إلى دخول هذا الموضوع في دائرة اهتمام البحث الاجتماعي، وأنه يمكن دراسة المناطق المحرمة لأنماط السلوك الإنساني بالاستعانة بالمناهج المسحية. وتضم اختبارات الصدق في البحث إعادة مقابلة عدة مئات من المبحوثين، ومقارنة إجابات الزوج والزوجة، ومضاهاة بيانات المقابلة بشواهد خارجية. وتتمتع البيانات بدرجة كبيرة من الصدق بفضل استخدام جميع هذه الاختبارات. ومما يثير الدهشة أن أحداً لم يحاول تكرار هذه الدراسة في الدول الأخرى حيث تبدو أهمية المقارنة بين النتائج.

\* \* \*

## محاضرة ثقافة الفقر

هناك مصادر عديدة داخل علم الاجتماع للاهتمام بدراسة ظاهرة الفقر والقطاعات الفقيرة في المجتمعات الإنسانية ، سواء المتقدمة منها أو النامية . فوجود الفقراء في مجتمع صناعي متقدم يمثل تحديا قويا للنظام الرأسمالي ، ويهدد أركان ذلك النظام ، ومن ثم نجد الهيئات الحكومية والخاصة تلتفت إلى تلك المشكلة وتشجع إجراء بحوث حولها . وفي داخل المجتمعات النامية ، أو شعوب العالم الثالث ، تمثل دراسة هذا الموضوع شيئا بديهيا لعلماء الاجتماع في تلك البلاد ، فإن دراسة من هذا النوع هي الواجب الأول والأساسي . وتتنوع الدراسات في منهجها، فمنها ما ينفج نهجا سوسيولوجيا ، ومنها ما ينحو نحو أنثروبولوجيا في المنهج المتبع ، والمؤكد أن دراسة هذا الموضوع في البلاد النامية لا تستقيم دون الاتجاه الأنثروبولوجي . كما تتنوع الدراسات في طبيعتها فمنها دراسات نظرية ، تحاول إلقاء الضوء على العلاقات والعوامل والمشاكل وتحاول حل مشكلات التعريف والتصنيف ، ومنها دراسات تطبيقية تستهدف في المقام الأول تقديم حلول لمشكلات حية ماثلة أو اختبار فروض نظرية على محك الواقع . وسوف يميل عرضنا هذا إلى إبراز الطابع التطبيقي لتلك الدراسات التي أجريت عن الفقر والفقراء .

ومن الدراسات الطريفة في هذا الميدان دراسة أجريت مؤخرا في الولايات المتحدة عن عادات الاستهلاك عند بعض الجماعات التي تسكن الأحياء الفقيرة في مدينة نيويورك ، وقام بها عدد من علماء الاجتماع هناك<sup>(1)</sup> . وقد أرادت تلك الدراسة

---

(1) الملاحظ بصفة عامة أن الهيئات الاقتصادية والشركات الصناعية والتجارية في البلاد الصناعية المتقدمة تكلف الباحثين بإجراء دراسات لبعض أنماط الاستهلاك لدى قطاعات مختلفة من الشعب ، بهدف تخطيط برامج الانتاج من ناحية ، والتدخل للتأثير على عادات الاستهلاك من ناحية أخرى . وكان يمكن أن يصبح هذا الميدان من ميادين علم الاجتماع الاقتصادي من أكثر ميادين علم الاجتماع تقدما ، لو أن تلك الشركات والمؤسسات كانت تسمح بإذاعة نتائج البيانات التي تنتهي إليها البحوث التي تجريها . ولكن من البديهي ألا تسمح بذلك ، لأنها تريد أن تحتفظ لنفسها بميزة الانتفاع بها في تخطيط برامج الانتاج والدعاية والإعلان عن منتجاتها ، ولا تريد =إذاعتها لكي لا تستفيد

أن تعرف عادات الشراء عند أفقر القطاعات في مدينة نيويورك، كيف يختارون المتاجر التي يشترون منها ، هل يختارون ذلك على أساس الإعلانات، أو يتأثرون بتلك الإعلانات عند اختيار نوع السلعة أو الماركة المحددة التي يشترونها، وهل يشترون نقدا أم بالأجل ، وما هو المقدم الذي يدفعونه عادة عند شراء بعض السلع المعمرة أو غير المعمرة ، وما هي السلع والمشتريات التي ينفقون عليها أكبر جزء من دخولهم... إلخ.

وجاءت نتائج ذلك البحث مثيرة لدهشة الهيئات الحكومية المختصة، وللهيئات والمنظمات السياسية. حيث اتضح أن نتائج ذلك البحث يمكن تلخيصها في عنوان واحد هو: **أن الفقراء يدفعون ثمنا أعلى عند شراء احتياجاتهم.** ويتضح هذا من شرائهم للسلع الرثة الرديئة من المحلات التي تبدو في الظاهر رخيصة، واعتمادهم على الشراء بالأجل دون الانتباه إلى الأعباء المالية المجحفة المترتبة على هذا الأسلوب ، وفي عدم ترشيد الاستهلاك (وهذا مما يثير العجب) بشراء أشياء غير ضرورية (قد يدفعهم إلحاح البائع، أو سهولة الأخذ بالأجل ، أو معلومات غير صحيحة عن السوق أو السلعة... إلخ إلى شرائها) فهم يدفعون ثمنا أعلى مما ينبغي لأنهم لا يقرأون الصحف ، فلا يعرفون مثلا المحلات أو المناسبات التي تجرى فيها تخفيضات حقيقية (الأوكازيون) الذي يتم تحت رقابة الهيئات التجارية ، لأنهم لا يقارنون بين السلعة والتمن لنقص دائرة الخبرة ، ولا يتبعون أسلوب التخطيط في اقتناء المشتريات، ولا يغيرون السلع التي يشترونها أو المتاجر التي يتعاملون بها بسرعة ومرونة لالتزامهم بالتراث ومحافظتهم عليه (كإجراء دفاعي ضد المجتمع المحيط).

وربما كان من الممكن معرفة كل هذه الحقائق وعشرات مثلها منذ عشرات السنين الماضية ، لو أن الشركات التي تجرى بحوثا كثيرة من هذا النوع كانت تتيح نتائج تلك البحوث للنشر، كما أشرنا من قبل . فهناك آلاف الدراسات التحليلية لعادات

---

منها الشركات المنافسة . ولذلك تظل كثير من نتائج تلك البحوث حبيسة الملفات والأدراج ، وبالصدفة وحدها أو بالخطأ ، أو لأسباب أخرى يمكن أن تدفع بعض نتائج مثل هذه البحوث .

وأنماط الاستهلاك التي تجريها الشركات الكبرى أو معاهد بحوث السوق . ولكن لم يتحقق شئ من ذلك إلى أن استطاع بعض علماء الاجتماع تدبير التمويل اللازم من هيئات لا صلة لها بالبيع والشراء لكي يتمكنوا من إجراء بحث كهذا .

ولا يعني حديثنا هذا أن جهة معينة كانت مهتمة عمدا بإخفاء هذه الحقيقة، وهي أن الفقراء يدفعون ثمنا أعلى لمشترياتهم، ولكن الواقع أنه بسبب عدم متابعة النشر حول الموضوع، فإننا نستطيع القول بأن أحدا لم يكن يهتم أصلا بهذه الملاحظة. كما أنه ليس يكفي أن نجرى آلاف الدراسات المسحية والاستقصاءات على المستهلكين، وإنما المفروض أن تكون هناك أولا نظرية سوسيولوجية يستعين بها الدارس في تنظيم "المادة الخام" المجموعة، ويستكشف بها ما تنطوى عليه من دلالات وما تحمله من معان . أي أننا لا بد أولا أن نضع أيدينا على معالم المشكلة ونبلورها جيدا قبل أن ننتقل إلى اقتراح الحلول ومحاولة تنفيذها .

#### جدول رقم (١) (\*)

#### أفقر الناس يدفعون ثمناً لمشترياتهم أعلى من الفقراء

نسبة الأشخاص الذين دفعوا ثمناً أعلى من المعدل في شراء جهاز تليفزيون		نسبة الأشخاص الذين دفعوا ثمناً أعلى من المعدل في شراء جهاز تليفزيون	
في المحلات الكبرى أو محلات الجملة خارج المدينة		في محلات الحي المجاورة أو عند السماسرة (الدالين)	
أسر أعلى من ٣٥٠٠ دولار	أسر أقل من ٣٥٠٠ دولار	أسر أعلى من ٣٥٠٠ دولار	أسر أقل من ٣٥٠٠ دولار
٢٤	٣١	٤٩	٦٠
		أسر دخلها السنوي أعلى من ٣٥٠٠ دولار	
		أسر دخلها السنوي أقل من ٣٥٠٠ دولار (**)	
		٣٧%	
		٤٦%	

#### تعليق على الجدول السابق

(\*) نقل عن:

Caplovitz, David, The Poor Pay More, New York, ١٩٦٣

(\*\*) مبلغ ٣٥٠٠ دولار هو متوسط الدخل السنوي للأسر التي شملها هذا البحث والتي تسكن في ثلاثة أحياء لمحدودي الدخل في دائرة مدينة نيويورك، حي شرق هارلم.

تدل تحليلات الاستهلاك الموضحة في الجدول السابق على أن أفقر الأسر المدروسة تدفع أعلى الأسعار (في أجهزة التليفزيون وفي الغسالات وغيرها) عندما تشتري من المحلات القريبة داخل الحي أو من السماسرة والدالين الذين ينتقلون من بيت إلى بيت في الحي. أما أقل الأسعار فتدفعها الأسر الأقل فقرا التي تشتري من المحلات التجارية الكبرى (في وسط المدينة) أو من محلات الجملة التي تقع خارج المدينة. ويبلغ الفرق بين هاتين الفئتين ٢٦ نقطة مئوية. ويلاحظ أن الأسر الفقيرة التي تشتري من محلات خارج الحي (وتبلغ نسبتها ٣١%) نادرا ما تدفع أسعارا أعلى من المعدل التي تدفعها الأسر التي تشتري من المحلات المجاورة داخل الحي (وتبلغ نسبتها ٦٠%). ولكن نسبتها مع ذلك أعلى من الأسر الأقل فقرا التي كثيرا ما تفضل الشراء عن طريق الأجل طويل المدى "المريح" في نظرها. وهي على أي حال تدفع أسعارا أعلى من المعدل بنسبة أقل من الأسر التي تشتري من المحلات المجاورة في الحي (٣١% و ٤٩%). ولذلك يجب مقارنة جميع النسب ببعضها وعلى اختلاف فئاتها.

ولكن الملاحظ أن الأسر الأشد فقرا تميل إلى الشراء من داخل الحي الذي تسكن فيه لأسباب اقتصادية (ففي داخل الحي تستطيع الشراء بالأجل، وإن كانت فوائد التقسيط مرتفعة ومبالغاً فيها بشدة، على حين لا يمكنهم ذلك في المحلات الكبرى العادية)، وبسبب عدم درايتهم باحتمالات أو إمكانيات أفضل للشراء سواء من حيث النوعية أو الأسعار، ولأسباب عملية بحتة (لأن النساء الحديثات الزواج لا يستطعن ترك أولادهن الصغار بمفردهم في البيت والشراء من مكان بعيد) ولأسباب نفسية أيضا (لأن المهاجرين القادمين من بورتوريكو الذين يتحدثون الأسبانية، وكذلك الزوج المهاجرين حديثا من الجنوب يهتمون كثيرا بالعلاقات الشخصية مع البائع الذي يتعاملون معه داخل الحي أو مع السماسرة، أو لأنهم لا يستطيعون رد السماسرة (الدالين) الذين يطرقون أبوابهم ويلحون عليهم بالشراء).

والشئ الذي أبرزته الدراسة بوضوح أيضا أن الأسعار في هذا الحي ليست

أعلى من بقية أنحاء نيويورك الأخرى فحسب، ولكن السلع المباعة هي أيضا أسوأ مما يباع في أي مكان آخر في المدينة.

وبالنسبة لبحوث التسويق في الأحياء الفقيرة والمتخلفة لم تكن الفكرة الأساسية عن الموضوع غائبة تماما عن العلماء ، ولكن الجديد كان هو الاتجاه إلى الانتفاع بها في التطبيق . فقد استطاع باول لازار سفيلد في عشرينات القرن العشرين أن يطور - وهو بعد في فينا - الفكرة التي مؤداها أن الناس الذين يعانون من البطالة أو الفقر يدخلون في دائرة جهنمية مفرغة لا يستطيعون الفكك منها . فدائرة " أفقهم الاجتماعي " تضيق نفسيا وواقعا ، حيث نجد على سبيل المثال أن الشخص العاطل عن العمل منذ سنوات تتاح له فرصة قراءة الإعلانات عن الوظائف الخالية بدرجة أقل من الأشخاص الذين يمارسون عملا فعلا ، وأن الفقراء أقل تدبرا وتفكيراً في مشروعاتهم من الأشخاص الميسورين أو الذين معهم شيء من الإمكانيات المالية .

وليس من قبيل الصدفة أن بحوث الاستهلاك عند فقراء المجتمع الأمريكي قد بدأت في نفس الوقت الذي اتجه فيه الاهتمام الاجتماعي العلمي العام إلى دراسة الفقر في أغنى بلاد العالم الصناعي . كما أنه ليس من قبيل الصدفة أن الفكرة التي تبلورت (وهي فكرة نفسية اجتماعية أساسا ) من وراء هذه البحوث قد دخلت في صراع مع منطلقات نظرية أخرى قائمة من قبل ، ومن ثم ازدادت ثراء ووضوحا وتحديدا .

ففي البداية كانت هناك النظريات الاقتصادية البحتة التي كانت ترى أن الفقراء سوف يتغيرون ويخلعون رداء الفقر بمجرد أن يتوفر لهم المزيد من المال . ولذلك يتوقع عالم الاقتصاد الكلاسيكي أن الفقراء عندما يتحقق لهم ذلك سيغيرون أوتوماتيكيا عاداتهم القديمة ، ويخططون لحياتهم أفضل من ذي قبل ، ويشترون أفضل مما كانوا يشترون ، ويدخرون ، ويتعلمون التفكير في المستقبل. ولكننا نسأل هؤلاء السادة : هل الفقر هو مجرد عدم توفر المال ؟

وهذا هو السبب في اهتمام علماء الاجتماع - وكذلك علماء النفس إلى حد ما - بالفروق السلوكية والفكرية الناجمة عن امتلاك الإنسان للمال الوفير أو للمال القليل ،

وكذلك الفروق الملحوظة لكل الناس ، أى تصور الناس لمثل هذه الفروق . وقد اجتهد العالم الأمريكي أوسكار لويس بدراسة الأساليب المميزة لحياة وفكر الفقراء . ويرجع إليه الفضل في انتشار مفهوم ثقافة الفقر الذي شاع في كل الكتابات ، وإن كان يستخدم أحيانا بقليل من الدقة . وهو يعني هنا الثقافة بمفهومها الأنثروبولوجى الذي عرضنا له من قبل بوصفها كيانا كليا مركبا من عادات الحياة والأفكار والتصورات السائدة عند جماعة من الناس ، وتنتقل اجتماعيا من جيل إلى جيل ، وتمثل محاولة الإنسان التكيف مع البيئة المحيطة ، وتحافظ على الطابع المميز لحياته .

ويرى لويس أنه من الخطأ أن نصف الفقراء بأن عندهم "فقراً ثقافياً" ، أو أنهم يتميزون بالانحطاط أو العجز الثقافى . ذلك أن سكان الأحياء المتخلفة لا تقل القيم والمعايير الثقافية الموجودة عندهم عن تلك الموجودة عند أبناء الطبقة الوسطى . كل ما في الأمر أن لديهم معايير وقيما ثقافية مختلفة خاصة بهم ، كما لو كانوا أبناء مجتمع آخر أو قبيلة مختلفة عنا . فالإقتصاد في النفقات ، والاجتهاد ، والتفكير في الغد ، وضبط المشاعر الجنسية ليست قيما ثقافية معترفا بها في تلك الأحياء المختلفة . في مقابل هذا تسود هناك قيم التلقائية ، والإنجاز العضلي من حين لآخر ، والحيوية (إزاء الجنس الآخر) ، والتقدير الواقعي للإمكانيات .

ويرى لويس أيضا أن ثقافة الفقر – مثل أى ثقافة أخرى – تعمل على تجديد نفسها باستمرار وعلى المحافظة على بقائها ، اللهم إلا إذا حدثت بعض الظروف غير المتوقعة التي يمكن أن تقلب المجتمع الأمريكي رأسا على عقب ، وتغير من وضع هؤلاء الفقراء . ومعنى كلام أوسكار لويس هذا أن الفقراء سيظلون فقراء ، وأن هناك قوى - ثقافية اجتماعية داخلية - تشدهم إلى حال الفقر ، وأنه لا أمل في تغيير هذا الوضع . ويعلق بعض الباحثين على هذا الرأى بأنه يتناقض مع الخبرة التي عاشها ويعيشها المجتمع الأمريكي حيث تتابع عليه موجات المهاجرين والفقراء ، ولكنهم لا يظلون في أسفل السلم الاجتماعي ، وإنما يرتفع مستواهم وتحسن أحوالهم يوما بعد يوم .



ولكن التناول السليم لمشكلة الفقر من وجهة نظر علم الاجتماع لا يركز على الآثار السيكولوجية للفقر ، ولا على القيم والمعايير المميزة لأبناء الأحياء المختلفة ، وإنما يهتم في المقام الأول بالميكانيزمات الاجتماعية ، أى بالنظم ، التى تدعم من آثار الفقر هذه ، وتعمل على تجديدها وتطيل في عمرها ، بل وتحرص على ألا تختفي تلك الآثار أبداً. وهكذا يمكن القول - مثلاً - أن المثل الأعلى " للرجولة " في الأحياء المتخلفة لا يعنى تحمل الرجل مسؤوليته عن الأسرة . وقد نستطيع أن نقدم تفسيراً سيكولوجياً لتصرف الرجل شبه المتعطل عن العمل الذي يعوض قلقه الاقتصادي بالمبالغة في حكاية القصص الخيالية عن قوته الجنسية، أو يعوضه بالانتقام من كل النساء اللاتى يعرفهن لأنهن غالباً ما يكن في وضع أفضل منه اقتصادياً، حيث يمكن أن يعملن في الخدمة المنزلية في أى وقت وبأجر معقول. ولكن هذين التفسيرين لسلوك هذا الرجل لا يقدمان لنا أداة نافعة لتغيير الوضع القائم.

فإذا كنا نريد تغيير الأوضاع القائمة ونعمل من أجل ذلك، فعلينا أن ندرك - مثلاً - أن قانوناً للضمان الاجتماعي أو الرعاية الاجتماعية (كان موجوداً فعلاً في أمريكا حتى عهد قريب) يشترط لتقديم إعانة مالية للأطفال الذين لا عائل لهم (وهم غالباً أطفال غير شرعيين أيضاً) ألا يكون في بيت الأسرة أى رجل مسئول. فمن شأن هذا القانون أن يشجع الرجل على الهروب من مسؤوليته عن الأسرة، لأنه بمجرد أن يبدأ رجل في رعاية زوجته وأطفاله الذين كان هجرهم من قبل، تسقط عنهم أموال التأمينات أو الضمان الاجتماعي. (جدير بالذكر أنه بعد إتمام تلك الدراسة، وتناولها بالكتابة والتعليق، انتشرت تلك الحقائق وذاعت، مما أدى إلى تغير كثير من مواد هذا القانون الأمريكي).

غير أن القوانين والتعليمات التى تؤدي أحياناً إلى نتائج وآثار غير مرغوبة وغير مقصودة لا تمثل سوى جزء من النظم الاجتماعية القائمة ، التى يمكن تغييرها ويمكنها أن تغير الحياة في الأحياء المتخلفة ، دون حاجة إلى ان ينقلب المجتمع رأساً على عقب . وتمثل المتاجر التعاونية محاولة أخرى على طريق حل مشكلات الأحياء

المتخلفة . فقد اتضح من بعض الدراسات المبدئية أن مثل هذه المتاجر والتربية المستمرة لأبناء تلك الأحياء على الاستهلاك السليم تمثل ضرورة ملحة كشفت عنها دراسات السوق ودراسات الاستهلاك ، التي بدأنا حديثنا بالإشارة إليها . ويستطيع علماء الاجتماع أن يقدموا في هذا الصدد مجموعة من المقترحات والتوصيات المحددة الملموسة التي يمكن تنفيذها عملياً، سواء من حيث متطلباتها من النفقات أو الأيدي العاملة.

وتعتمد هذه الدراسة على تحليل بنائي وظيفي للموقف كله ، يعد استكمالاً لتحليلات علم النفس الاجتماعي . فتوضح كيف أن نسق السوق والائتمان الموجود في الأحياء المتخلفة والمختلف عن المعيار السائد في المجتمع قد نشأ استجابة للاحتياجات الخاصة لسكان تلك الأحياء ، وذلك إما لأنهم لا يستطيعون الشراء بالأجل ( بالتقسيط ) من المحلات التجارية العادية ( بالنسبة للسلع الكبيرة الغالية الثمن : كالأثاث ، وأجهزة التليفزيون ، والغسالات ... الخ ) ، أو أنهم يفضلون العلاقة الشخصية مع تجار المحلات القائمة داخل الحي أو مع السماسرة (الدالين) الذين يزورونهم في بيوتهم . وكثيراً ما كانوا يدركون فعلاً أنهم يدفعون في مشترياتهم أسعاراً أعلى من أسعار السوق الحقيقية، ولكنها نادراً ما كانوا يدركون حقيقة أخرى على نفس الدرجة من الأهمية: وهي أنهم يحصلون على سلع أرداً من السلع القياسية المعروفة في السوق. ولكنهم كانوا على أي حال يتقبلون الغبن الواقع عليهم كأمر لا مفر منه، في الوقت الذي تخصصت فيه مجموعة كاملة من المتاجر والسماسرة والدالين ومحلات الإقراض في الاتجار مع هؤلاء الناس والمحافظة على التعامل معهم.

ولا يمكن لأي هيئة ، خاصة أو حكومية ، أن تتدخل لمحاولة علاج هذا الموقف إلا إذا حدث نوع من التوعية لهؤلاء المستهلكين، في نفس الوقت الذي يتم فيه تعديل نسق السوق القائم من خلال إجراءات قانونية وعن طريق إنشاء المتاجر التعاونية . عندئذ سوف يتضح لنا أي أنماط السلوك عند المستهلكين تستند إلى قيم وتصورات مستدمجة (أي تعلمها الناس في طفولتهم وأصبحت متأصلة فيهم وفي مستوى

البديهيات)، وأيها عبارة عن تكيف من جانب أولئك الناس مع الضغط الخارجي للظروف، ومن ثم يمكن تغييرها إذا تغيرت تلك الظروف الخارجية . ويمكن بعد ذلك أن ننتظر لنرى ما يحدث في هذه الحالة، ونقيم خطواتنا التالية على أساس الخبرات التي نتحصل لنا.

ويتمثل إسهام علم الاجتماع في هذا المثال في مجموعة كاملة من الخطوات والإجراءات على النحو التالي: نبدأ بالملاحظة التي تقودنا إلى صياغة النظريات، فتدفعنا تلك النظريات بدورها إلى إجراء ملاحظات منهجية جديدة، سوف تؤدي بدورها إلى نظريات أكثر شمولاً وأكثر دقة، كما تؤدي في نفس الوقت إلى تقديم مشورة وتوصيات لتوجيه الواقع القائم. وإذا تيسر تطبيق تلك التوصيات فإنه يتم بعد ذلك ملاحظة وقياس آثارها ونتائجها، ويقودنا ذلك التقييم في نهاية الأمر إلى اختبار الصياغات النظرية التي كنا قد وضعناها من قبل.

ويتم في نفس الوقت جمع بيانات سوسولوجية (سواء بناء على نظريات سوسولوجية مؤكدة، أو بدونها) يمكن استخدامها في مناسبات أخرى أو عند دراسة موضوع آخر. ومن هذه البيانات السوسولوجية على سبيل المثال : أن الدخل المنخفض وارتفاع نسبة البطالة يرتبط بارتفاع معدلات المواليد غير الشرعيين . وقد أمكن إثبات هذه العلاقة ( أشرنا من قبل إلى أن إثبات العلاقة العلية بين واقعتين في المجتمع يمثل مشكلة معقدة في علم الاجتماع، وليس بالأمر السهل)، أمكن إثباتها لدى الزوج الأمريكيين وذلك في تقرير عن بحث أجرته وزارة العمل الأمريكية عن " الأسرة عند الزوج " لبيان العلاقات المتبادلة بين الاضطهاد الاقتصادي ( الذي يتعرض له الزوج ) وبناء الأسرة<sup>(1)</sup>.

ولو أدى هذا التقرير إلى اتخاذ إجراءات معينة من جانب الحكومة لعلاج هذا الموقف ( وهو ما لم يحدث للأسف ) ، وحاولت الهيئات المسؤولة – مثلاً – إعطاء

---

(1) يهمننا أن ننبه هنا إلى أن ارتفاع معدلات المواليد غير الشرعيين في جماعة ما لا يعني في ذاته شيئاً بالنسبة لكثرة أو حجم العلاقات الجنسية غير المشروعة ، لأن تلك العلاقات قد تكون أكثر شيوعاً ، ولكن أطرافها أكثر تحفظاً بحيث لا تؤدي كل علاقة منتظمة جنسية غير مشروعة إلى ولادة طفل غير شرعي .

آباء الأطفال غير الشرعيين أولوية في الحصول على وظائف ، فإنه كان يتعين بعد ذلك القيام بملاحظة دقيقة لمدى نجاح أو فشل برنامج من هذا النوع ملاحظة منظمة . ويستطيع علماء الاجتماع القيام المهمة ، لأنهم مؤهلين لذلك ، ولديهم خبرة تمكنهم من رؤية العلاقات المتداخلة والمتشابكة بين العديد من العوامل التي يلاحظونها : الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والنفسية الاجتماعية دون أن يتخذوا موقفا مذهبيا متعصبا بتفضيل أحد هذه العوامل على الأخرى ، أو إسناد أهمية إليه تفوق فاعلية العوامل الأخرى في الموقف المدروس . ولكن تحديد أفضل نقطة لبدء التغيير المنشود، أى البرنامج المخطط المراد تنفيذه ، فذلك أمر عملي وإمبيريسي تحكمه ظروف الموقف وطبيعة ورؤية المسؤولين له .

وقد استطاع علماء الاجتماع تطوير مناهجهم منذ عشرات السنين للاضطلاع بتلك المهام . ولو أن الملاحظ ، خاصة في البلاد التي حقق فيها علم الاجتماع تقدما كبيرا ، أن غير المشتغلين بعلم الاجتماع يبالغون في الآمال المعقودة على مناهج علم الاجتماع ، بحيث أنهم يتوقعون أن يؤدي استخدام هذه المناهج في ذاته إلى تحقيق الحل المنشود للمشكلة، كما لو كنا بصدد مشكلة تكنولوجية ولا ينقصنا إلا الحصول على الأداة المناسبة لإجراء الإصلاح أو إنجاز العمل المطلوب . ولكن الحقيقة أن المناهج السوسيولوجية المتميزة إنما هي جزء من علم الاجتماع الإمبيريسي ، فوظيفتها أن تمدنا بالبيانات ، التي يمكن على أساسها البدء في العمل أصلا ، لو أن المشكلة كانت مطروحة طرحا سليما ولو أن البيانات التي جمعناها حلت تحليلا صائبا . ولكي يحدث هذا يتعين علينا أن نحدد أهداف البحث تحديدا واضحا ، وهو أمر ليس بديهيا ولا عاديا إطلاقا، كما يجب أن يكون هناك اتفاق- بين الجهة التي تكلف بالبحث والاجتماعيين الذين سيجرونه- على الأهداف التي يسعى هذا البحث إلى تحقيقها.

كما أنه من الشروط الأساسية للبحوث ذات الطبيعة التطبيقية ومن شروط وضع خطة عملية ناجحة أن يتفق الباحثون وجهة تمويل البحث ( سواء كانت هيئة حكومية أو خاصة ) على اعتبار برنامج العمل أو خطة الإصلاح أمرا مرغوبا فيه، وأن يتفقوا

كذلك على الاتجاه الذي ستتخذه التغييرات المقترحة . وكثيرا ما يتعين أن تتخذ مثل هذه القرارات على أساس اعتبارات غير رشيدة (أو غير عقلانية) تماما، أعنى أنها تتخذ على المستوى الأخلاقي أساسا ، لأنها يجب أن تراعي قيم وأخلاقيات الجماعة ولا يكون من شأنها انتهاك حرمانات هؤلاء الناس أو الاعتداء على خصوصياتهم .. إلخ . ومثل هذه المشكلات كثيرا ما تواجه المشتغل بتطبيق المعرفة السوسولوجية على الواقع، ولذلك سوف تبرز في سياق حديثنا عن علم الاجتماع التطبيقي في أكثر من مناسبة. ونرى أن لفت الانتباه إليها أمر محمود لضمان نجاح عمليات التدخل التي ينصح بها ويشرف على تنفيذها وتقييمها علماء الاجتماع.